

ليلي العثمان

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^



والقطّة

رواية

المرأة والقطة

رواية

ليلي العثمان

• رواية من الكويت

كيف جاءت تلك اليوم، وقتت بجسدها الجميل
سوق حافة السور، وعكست الشمس خيالها على
الأرض أمامي، لم أصدق، رفعت إليها وجهي.
أسرعت، فتحت لها ذراعي فألقيت بنفسها لاهثة
بينهما، وكأنها ترتدي على فراش من القطن.
شدتها إلى صدري، لمسات متألقة، شعرت أن
وزنها ازداد، داعيت جسدها لتقسته برفق.
فوجئت بانتفاخ في بطنها، ربت عليه بلطف.
فرحت، كنت أضيع في فرحتي لولا أنني تنبهت إلى
أنني أعيش في بيت تسكنه عمتي، أسرعت إلى
غرفتي أخفيت دابة في قراشي وجلست أراقبها
وعيني لا تشيع منها، حتى بدأت بالتأويب وحين
أغلقت خرجت إلى الحوش كي لا تلحظ عمتي
غيابي.



صدر للمؤلفة أيضاً من
الدار العربية للعلوم ناشرون

تصميم الغلاف: سامح خلف



منشورات الإحسان
Editions El-Ihsanif
editions.elihsanif@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publications, Inc.
www.asp.com.lb - www.asgbooks.com



جميع الحقوق محفوظة في دولهم | ليلي وخرات، كهم | www.neelwafural.com - www.nwrl.com

www.miazna.com-RAYAHEEN

جميع الحقوق محفوظة للتأشيرين

منشورات الإختلاف
Editions El-Ikhtilaf

149 شارع حسية بن يوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: 21676179 213

e-mail: editions.elikhtilaf@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. LLC



عين البنية، شارع المغني توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: hachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنفيذ وفرض الألوان: أيمن غزالي، بيروت - هاتف (+961-1) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+961-1) 786233

السكون يخيم على المكان، خلال النافذة الشحمة بشبك الحديد تسقط حيث زاوية الفراش. فتتشر زخارفها فوق الوسادة وعلى الأشياء الموضوعة فوق الطاولة. كوب ماء من البلاستيك، قطع شاش ومناديل، علبة شوكلاته، صحن فاكهة بلا سكين وأشياء أخرى صغيرة مبعثرة.

هو فوق السرير. رافعاً ركبتيه، متكئاً عليهما بذراعين كسندان رأسه الملقى يكسل. وجهه ساهم، يضع قطرات من عرق ودموع تلتصق على وجتيه وشفتيه المضغرتين.

لم يبد أنه شعر بوقوع الخطوات رغم أن صرير الباب سبقها. توقف الشرطي بقربه، ويحذر شديد مدّ كفه، لامس كتفه، ناداه: - سالم.

لم يحرك ساكناً. عيناه جامدتان.

هزّته اليد ثانية:

- سالم: معي صيف يريد مقابلك.

رفع رأسه بحركة سريعة مفاجئة، لم يلتفت، نظرته باتجاه الحائط. صوته صارخاً:

- لا أريد أحداً، لا أريد، لا...

أخفض رأسه، دَسَّه بين ركبتيه، شدَّ عليه بذراعيه مؤكداً رفضه.
نظر الضيف إلى الشرطي، أشار له أن يتعد. ودنا بخطى ثابتة هادئة،
مَسَّ كتف الشاب مساً خفيفاً مدركاً أن ثورة مكبوتة قد تنفجر. هتف
بصوت حاول أن يبدو حائثاً:

- سالم.

لم يستجب الشاب. علت نبرة العتب في صوت الضيف:

- هل هكذا تستقبل ضيفك؟

حرَّك سالم رأسه بضيق وزفر. أدرك الرجل أن صعوبة تواجهه.
حرص أن تبقى رثَّة الحنان بصوته:

- سالم. أنا المحامي الذي سيدافع عنك. ولا بد أن
تحدث.

رفع سالم وجهاً باهتاً. ألقي نظرة سريعة على وجه المحامي
خالية من أي تعبير. ارتعشت شفتاه. أطرق برأسه. انزلقت - غترته -
المسَّخة عن رأسه. انكشف شعره الملبَّد. كفه تهرش بعصبية فروة
رأسه التي لم يلامسها الماء. صوته المخنوق بالألم يرتفع حاداً.
- لا أريد دفاعاً. فقط أريد عتتي.

جلس المحامي على طرف السرير فاهتز مُصْديراً جمجمة
خفيفة. اقترب أكثر، أحاط كتفَي سالم، رَتَّ عليهما:
- اهدأ. أعدك أن أساعدك. لماذا تريد عنك؟

التفت إليه وتظرة حمراء تطل من عينيه تشي بشرور مخزون.
رفع أطراف أصابعه النحيلة شبكها بعنف كمن يقبض على شيء.
صرخ:

- أريدُها. سأطبق على عنقها حتى تموت.

شحن المحامي جراً في صوته. واجهه:

- تريد أن تقتلها بالطريقة التي قتلت بها زوجتك حصّة!!

كمن مسَّته صاعقة... ارتعد. هبَّ من الفراش. فاحت رائحة
عرقه المخزون حامضة. أخذ يصارع الهواء بذراعيه يلعلع بالصراخ.
دلف الشرطي. وقف قريباً تحسباً لأي رة فعل مفاجئ. كان سالم
قد اتجه إلى الجدار. يضرب عليه بكفه ضربات عنيفة تتماوج مع
صوته المتألم:

- لم أقتلها. ولم أقتل القطعة داتة، عَمَتِي هي التي فعلت.
هي القتال.

احتواه المحامي بذراعيه. أعاده إلى السرير. ظلَّ يرتعش وقد
تعرَّق وفاضت دموعه. هذاه:

- أهرف يا سالم. عنك قتلت داتة. لكن مَنْ قتل حصّة؟
فارت رغبة حزنة، نواجه، صوته الذليج صارخاً بين التشيج:
- ما أدري. أنا ما قتلتها. ما قتلتها.
- سأصدقك يا سالم. اهدأ. ونذكر كل شيء. لازم تعطيني
البرهان أنك لم تقتلها.

تناقلت هوجة صراخه. تحوَّل البكاء أنيناً أشبه بعواء كلب
مفجوع يموت صاحبه.

ابتلع دموعه. التفت إلى المحامي. شدَّ على يده. بلَّكها، توصل:
- الله يخليك. ساعدوا داتة. طلعوها من المرحاض. لقد

جاعت.

صوت المحامي ونظرته إلى الشرطي:

- ألم يأكل بعد؟

ثم نحو سالم:

- ما زلت ترفض الطعام؟

صوت سالم معانداً:

- لا أريد الأكل. دانة في المرحاض. لا أريد أن أتبرز على

وجهها. طعموها وهاتوا عمتي لأقتلها.

شدّ المحامي على كتفه:

- يا سالم. اتسّ دانة. كلمني عن حصة. ماذا حدث آخر ليلة؟

مَن قتلها؟

أنت... أم...؟

اشتعل غضبه. تناثر الزيد من شفتيه. امتدّت أصابعه تشدّ أزرة

الدشداشة تمزقها وتضرب على صدره بعنف كمن يودّ لو يُسكت

النبض فيه:

- حصة أحيها. شلون أقتلها؟

انفلت يدور في الغرفة كذباب في نزعها الأخير. يرتطم

بالجدران والشرطي يلاحقه ليمسك به. صوته منقطعاً مهترئاً من

الصراخ:

- أنتم ظالمون. أنا ما أقتل حصة. أنا أحيها. أنا... لا...!

فَقَدَ السيطرة على نفسه. أخذ يخطّ صدر الشرطي ليعبده.

اقترب المحامي شدّ عليه. لكنه قاوم بشراسة جعلت الشرطي يسارع

إلى الباب يتنادي.

يدخل شرطيان. يحاصران الشاب. يحملانه إلى غرفة العلاج.

المحامي بأثرهما بينما عيون السجناء الآخرين تتابع المشهد

بهتت.

ثبّت جسده فوق سرير العلاج. أعدّ الطبيب الإبرة فزرعها في

فراخه وهو ما يزال يقاوم ويعنف. حتى سرى المفعول فهبطت

الذراع متدلّية، وأسبل عينيه الدامعتين.

جلس الطبيب إلى مكتبه. خاطب المحامي:

- يرفض الطعام. حالات الهياج لا تفرقه.

- ما الحل؟

تسامل المحامي:

- سأكتب تقريرك الآن.

«حالة السجن سبّكة. يُنقل تحت الحراسة والملاحظة إلى

المستشفى للراحة والعلاج».

• • •

حين ثابعت عيناه وانفتحتا كان وحيداً، هادئاً مستسلماً في

فراشه الأبيض، قليل من أشعة الشمس ينفذ إلى الحجرة ويرتاح

على نصف وجهه الذي يبدو هزلاً أصفر. وجه يعلن أن شيئاً كبيراً

ينتش صاحبه ويستلب راحته.

أما جسده فقد كان مثلاً لا يقوى على الإتيان بحركة. وحين

سمع الباب يُفتح استدّار برأسه ناحية الصوت. عندما لمح الطبيب

أشاح إلى الناحية الأخرى.

اقترب الطبيب من السرير. ابتسم. لكن المريض الذي أشاح

لم يلمح ابتسامته، وحده الصوت دخل إلى مسامعه قوياً:

- صباح الخير يا سالم.

لم يرد.

تحرك الطيب بهلوه إلى حيث استدار وجه سالم. نظر إليه.

ابتسم ثانية لكن ابتسامته لم تقابل بترحيب. سأله الطيب:

- ها: كيف الحال الآن؟

لم ينبس. كرّر الطيب سؤاله بطريقة أخرى:

- ألا تشعر بتحسن ولو قليلاً؟

- لا أشعر بشيء أبداً.

ابتسم الطيب ابتسامة مشجعة. برّر له:

- ذلك بسبب كمية المخدر.

صوت سالم يتأوه:

- أنا تعبان. ضائع.

استلّ الطيب ذراعه من تحت اللحاف. قبض على رسغ.

عيناه على الساعة، لحظة وقال:

- النبض جيد. أنت بحاجة للراحة. سترتاح أكثر لو تحدثت

للمحامي.

سحب سالم ذراعه. أشاح بوجهه متبرماً:

- لا أريد أن أكلم أحداً.

في محاولة لإقناعه:

- نريد أن نساعدك يا سالم.

قال الطيب جملته منتظراً إجابة وترحيباً. تحرك سالم. رفع

جذعه. استند على كوعيه. رفع عينين حزيتين، سأل الطيب بصوت

واهن:

- تساعدوني؟ شلون؟ هل تعيدون الوجوه التي فقدتها؟

لاح بشرٌّ في وجه الطيب. اعتبر سؤاله مدخلاً مناسباً لبدء

حواره:

- كلمني عن كل الوجوه التي تحبها. ويمكن أن...

قاطعه وقد تيقنت من عينيه نظرة اتهام:

- أنت كذاب... كيف تعود الوجوه التي ماتت؟ دانة قتلها

عنتي. وحصة...

قاطعه الطيب:

- من قتلها؟

بهت وجه سالم. اختنق صوته بالعيرات:

- ما أدري. ما أدري.

حرّسه الطيب:

- حاول تذكر كل شيء يا سالم.

شدّ على رأسه:

- يا ليتني أتذكر.

كرّر الطيب رجاءه:

- حاول. لو حاولت تستطيع أن تقول...

- ما الفائدة؟ أنا لا أريد أن أعيش بعد دانة وحصة...

- هل من أجل هذا تسكت وترفض الأكل؟

هزّ سالم رأسه بآلم. تابع صوت الطيب:

- أنت شاب. والمستقبل أمامك.

فهذه سالم بصوت أفصح به عن مقدار العذاب الذي يلوب في داخله:

- ماكو مستقبل بعد حصة!

- لا تفقد الأمل. حاول. تذكر. ساعدنا. لنساعدك.

لماذا يلاحقوني؟ يريدونني أكل لأعيش. لمن أعيش؟ حياتي كانت مرة منذ أن فقدت وجه دانة - والآن. ستكون أكثر مرارة بعد أن غاب وجه حصة. لم يبقَ إلا وجه عمتي بطاردني كلما أغضت عيني، أراها تشرع مخالبها وكأنني فأر تريد تمزيقه. لماذا يريدون نبش ذاكرتي؟ ماذا أتذكر؟ وجه أمي الراجع الذي غاب عن البيت أم وجه دانة الذي غيَّبه عمتي في الظلام.

آه يا دانة، حبيبي ورفيقي. أذكر لقاءنا الأول. عادت أمي من السوق تحملها بين يديها. يضاء مثل القطن. يتناثر شعرها على عمامة أمي. قدَّمتها لي سعيدة. وقالت: انظر يا سالم كم هي جميلة.

تأملتها. قُرِبت عيني من حينها الجميلتين. فمادت بصوت حنون كأنها تحييني. قُرِبتا إلى صدري. رصصتها إليّ. طبعَت قبائلي الأولى على رأسها الصغير. ومنذ ذلك اليوم عاشت بين يدي. كنت لا أنام إلا وهي في حضني تريض بأمان ووداعة. أقسم لقمتي بيني وبينها لتكبر ويطول ذيلها الجميل.

لكن عمتي كرهت القطة التي صارت سلوتي مثلما كرهت أمي التي كان أبي يحبها. أمي كانت طيبة، لكنها عاشت حياتها

مذعورة، مهددة أن تفقد البيت، والزوج وأن تفقدني أنا الذي كنت حلمها ليل نهار.

شَرَّ عمتي كان يلاحق أمي. محاولاتها استمرَّت لتقطع الوصل بينها وبين أبي.

صوت عمته الشرير نهّادى إلى مسامحه ذات يوم وهي تهذر بكلام كثير عن أمه.

سمعتها تأمره:

- لازم تطلقها.

صوت أبيه مرتجفاً:

- إنها طيبة. وعذوم.

صرخت عمته:

- لكنها تكرهني.

دافع أبوه:

- أنت تعاملينها بخشونة وقسوة.

- لا تدافع عنها.

- لا تنسي أنها أم ولدي. وقبلها طَلَّقت زوجتين.

زعلت:

- يعني أنا المسؤولة؟ تذكر زين. الأولى خانتك مع «عبد الجيران».

ردَّ كمن ينفخ:

- أنا ما شفتها بعيني.

تجاهلت دفاعه. أكملت:

- الثانية كا...

قاطعها أبوه متوسلاً:

- لا تظلمها. «المرّة» ما كانت شينة.

- «طاحت برأسك حتى تزوجني سعيدان».

- كانت تريد لك الخير - تزوجي. وتفرح بعينك.

أنكرت عمته الفضل وفشرتها:

- لا. كان هتّا أن تبعني عن البيت حتى تعيش فيه بروحها.

وهزلت بضحكة. ارتفع صوتها متصراً:

- لكن أنا التي أخرجتها.

ارتجف قلب الصغير. عصفت الخوف بطفولته. أحس برداً

قاسياً يلفحه. خشي على أمه التي كانت غاضبة في بيت جدته.

صوت أبيه محاولاً:

- يا بنت الحلال. كفي الشر. روعي عذبي بخاطرها وعودي

بها.

زمرت عمته:

- أنا أراعيها؟؟ هيه... والله ما ترجع.

احتج صوت أبيه:

- وهذا الصغير، يترى يتيماً بلا ذنب؟

- «علّها تذلق» مثلما ربيتك. أرني ابنك.

زفر أبوه ولم يتلق، تحاشى شرّها، لكنه ترك الشر يزحف.

تلك الليلة لم ينام سالم. حاصره الخوف. تذكر أمه. أحسّ

طعم قبلتها يوقظ حنينه. ودّ لو يفرّ من فراشه إليها، أو يفرّ إلى
فراش أبيه المستسلم لمخالب عنته التي تمرّق حياتته. تدمي وجوه
أحبابه. تعيث خراباً في حقائق أحلامه وتبتر سيقاتها حتى لا تنمو
نحو السماء. ودّ أن يصرخ في وجهه. يتوسل: لا تترك أمي.

لكن عنته أفلحت.

«طلق أبي أمي. كرهتُ ضعفه واستسلامه. منذ ذلك اليوم
تكوّمت على نفسي. لم أجد من أبوح له بأحزاني سوى داته.
أشكو لها حرمانتي، ووحدي، وأستمدّ من نظراتها الوديمة مزيداً
من الشجاعة لأصبر، وأحتمل غياب أمي وغياب أبي الذي كان
موجوداً لكن حنانه غائب. لم يستطع أن يعوّضني فقدان أمي، وحين
يتقرّب أحياناً ليعانقني أو يداعبني تصرخ فيه عنتي:

- لا تفسد الولد بهذا الدلال.

ترتخي ذراعاه. أنزلق من بينهما. ألمح في عينيه الأسف
والضعف والمرارة. كل هذا لم يدفعه مرة واحدة أن يصرخ في
وجهها ويعلن: (هذا ولدي. يجب أن أعوّضه حنان أمه الذي حرّمته
منه).

لكنه أبداً لم يفعل، دوماً كان مشلول اللسان. فاقداً لإرادته.
كنت محروماً منه ومحروماً حتى من زيارة أمي التي لم يغب طعم
حنانها. لم يجرؤ أبي أن يأخذني لزيارتها. لكنها المسكينة حملت
شوقها وجاءت ذات يوم.

• • •

حين فتحت عنته الباب. كان يجلس على تراب الحوش. داته

في حضنه وهو يرسم على التراب وجهاً لا يضيظ ملامحه. لكنه وجه أمه الذي لم ينسه لحظة. ولم ينس أنها خرجت من البيت دون ذنب.

دخلت أمه، لم يصدق. ألجمته المفاجأة. لم يتحرك. حين رآته لاصقاً مكانه هرعته إليه. أسقطت جسدها التحيل بقرية. اندفع إلى صدرها، تمرغ عليه، استنشقت الرائحة العذبة التي فارقت، بحث عن رائحة تبقى معه، تمزيه في وحدته بعد أن تفادى أمه، كان بحاجة لأي شيء منها حتى ولو دمعاً تبلل يملحها جفاف ليله وترطب فرائشه.

التحم وأمه في عناق داعم محموم. لكن المخالب التي فتحت الباب تبعت أمه.

اقتربت لتبتر اللحظة بحدّة وقسوة. مسحت العيادة المتهذّلة عن رأس أمه وصرخت:

- أنت؟ شئ حذفك علينا؟

رفعت أمه وجهاً لن ينساه. كان بحرّاً من الحزن والدموع والتوسّل:

- ولهتُ على سالم.

لم تشفق العمة. انحنت إليه تشدّه من حضن أمه، تثبّت بثوبها صرخ:

- أمي... أمي...

لكن الأنياب انغرزت في لحمه. فرصته قرصة عاشت لأسابيع في فخله، جرّته مثل جرو، ألقت به بعيداً، وصرخت في وجه أمه:

- قومي، اخرجي وانسي أن لك ولداً هنا.

أعمدت الرجفة العاصفة شفتي الأم الصغراوين. كانت عيناهما تمتلئان بمطر حارق، بكّت، أفرغت كل دموعها، لعل قلب العمة يرحم أو يلين. لكنها تعادلت بالقسوة. أخذت ترفض أمه بقدمها وتكيل لها الإهانات:

- وحي لزوجك الثاني يا...

لملمت أمه عباها، اقتربت منه قبل أن تخرج، كان وجهه معقراً بالتراب وبالدموع.

دانة التي لحقت به ترفض في حضنه مرتعشة، قبل أن تتحني لترفعه إليها كانت يد عمته تشدّه بعيداً.

• • •

«ابعد وجه أمي عني. وبقيت مشوات طويلة... طويلة... أنتظر قبلها التي لم تصل. دخل أبي حاملاً تعب وضعفه وكيساً تطل من رأسه أوراق الفجل الداوية. استقبله وجه عمتي العابس، حيّاه، لم ترد. التفتت إليّ. فأرخيت وجهي هرباً. ألقى السؤال المرتعد على عمتي:

- ما بك؟

توقع شراً حين وثبت عمتي كالنمرة.

- جاءت أمه اليوم.

قالت هذا وهي تشير إليّ.

لمحت في وجه أبي بشراً وراحة. تقل عينيه بين وجهي الذي توقع أن يراه سعيدياً، ووجه عمتي الغاضب:

- زين. جاءت تشوف ولدها، حقها.

هزّت ذراعها الصلبة في وجه أبي:

- ما لها عندنا حق، بعد أن تزوجت.

هزّ أبي كفه بضمف:

- كفى... كفى.

لكن لسان عمتي لم يسكت:

- سامعتها. لا أريد أن تدخل بيتنا. تفسده وتوغر صدره

عليّ.

لم يحاورها أبي. علّق نظره بوجهي كأنه يؤدّ أن يؤكّد لي فرحه بمجيء أمي ورويتها إياي حتى وإن تعفرت تلك الرؤية بسوءات عمتي. تلك النظرة التي أطلت من عينيه مسحت شيئاً من الأمل. فرشت غيمة أمل تصوّرت أنها ستمتدّ وتكبر ويتحقّق خيرها.

في تلك اللحظة بكيت. أشفقت على نفسي. وعلى أبي. عذرتة رغم كراهيتي لضعفه هل كان بمقدوره ألا يكون ضعيفاً أمام عمتي؟ هي أكبر منه بسنوات كثيرة. ربّته منذ تولي جذّي وجذّتي في حريق شبّ في البيت. هكذا أفهموني. لكنني حين كبرت عرفت من أمي أن امرأة أخرى كانت تبيع البخور وماء الورد أحبتّ جذي لاحقته ليتزوجها ورفض. وذات ليلة شبّت النار في صدرها. تأجج الحقد الأسود تسلّلت في الليل، سكبت الكاز حول غرفة جذي النائم بسلام مع جذتي. ثم أشعلت النار وهربت. تلمّح الجسدان. ونجت عمتي وأبي اللذان كانا يبيتان في بيت عمتها تلك الليلة.

كان أبي صغيراً تولّته عمتي في البيت الذي شهد مأساة الجدّين.

ثم شهد بعد ذلك مآسي أبي تحت كنف عمتي الظالمة. حرمة من ثلاث زوجات آخرهنّ أمي التي خرجت مظلومة، يائسة.

وجه عمتي يلاحقه في السجن، في المستشفى، هذه الماردة التي قتلت دانة... من غيرها قادر أن يقتل حصّة؟ أن يخنق الحياة ويشرب الدماء؟ لم تقاسي حصّة وحدها ذلك الظلم من العمة. لم يسلم أبوه، لم تسلم زوجاته السابقات، ولا أمه التي لا يغيب مشهدها المولم عنه وهي تفصله عنها. ولم تسلم حتى القطة دانة.

«داتي لطيفة. أليفة، تتحرّك حولي، وعلى أسوار البيت المطلّة على الجيران. نزهة يومية توظف النشاط في جسدها الذي يرتخي طوال الليل بين ساقّي، لكن عمتي كرهت هذه النزهة - لاحقتها ذات يوم بعصا غليظة. دانة التي لمحت العصا انتابها رعب جعلها تقفز قفزات أكبر من طاقاتها. فهوت إلى الأرض متهاككة، هوت عصا عمتي عليها تترج جسدها بلا رحمة، حتى تكسّرت ضلوعها وسال لعابها مضرجاً بالدم. تهتدت عمتي وهي ترى القطة ذائبة مفروشة على الأرض، كان الشّر وما يزال يسكن وجهها حين لمحتني قابلاً أنظر لدانة مرتعداً. اقتربت مني، رفعت العصا بوجهي وقد تطلّخت بدم دانة. تمثّيت لو كان بمقدوري أن أجمع دمها نقطة نقطة، وأعيدة إلى شرايينها، لكن العصا الظالمة اهتزّت في وجهي وصوت عمتي المتوعد:

- يا ويلك من هذه العصا. ستأكل من جلدك مثل قطنك

التجسة.

لا أدري كيف جرّوت. كيف استطاع صوتي المخنوق أن يغادر

حلقي، ويتأثر بالكلمات:

- لم تفعل شيئاً، تمشي على السور.

- الصعود إلى السور معناه زيارة لأسطح الجيران. مستبئنا
فطنتك بباقي القنط وقدراتها.
ابتعدت.

ما كنت أحاول أن أنط نحو دانة حتى كانت تستدير ثانية
والمصا تهتر

- يا ويلك وويلها إن شفتها على السور... فهمت؟؟

هزرت لها رأسي. لم أجد مقاومة في ذلك كانت رقبتي
المرتبعة نهز الرأس بسهولة حتى يكاد يسقط ولا يرتفع. خرجت
وعودي من فم تكسر فيه الكلام.

- أمر... لك... م... م... تي.

تركتني بالمي. انتظرت كي لا تنبها حركتي عن عزمها في
الابتعاد فتفاجئني وأنا ألث إلى دانة.

انتظرت. حتى غاب طرف ثوبها عن مرأى عيني. صدها
شحت نفسي بقوة، قطعت المسافة التي تفصلني عن دانة، ارتيمت
بقربها لاثاً، حائفاً أن تكون روحها قد فارقتها. حثمتها، استسلمت
ليدي، ألصقتها بصدري، قبلتها، واسيتها، وكأني أريد أن اعتذر لها
عن قسوة عفتي، وعن ضعفي وابتعادي عنها.

رفعت طرف دنداشتني، مسحت ما علق بفمها من دم، وما
علق بجسدها من تراب اختلط بولها. أصدرت آهات ممزقة ومواء
باكياً لم تستطع هيناي إلا أن تشاركها فيه.

أسرعت أحملها إلى «برمة الماء». عطست بوجهها في الماء
حتى أحتت بانتعاشة حيفة تسري إلى جسدها المروض. أخذت
تعطس عطسات متتالية تلتحي الماء ص ثمرها الذي سالت بقايا
دمائه في ماء البرمة. أحلستها في حضني، مسحت على جسدها
بحدان استسلمت له. وعينها نحوي تبتان امتناناً ونظرة حانية كذلك
النظرة التي أهديتها إلى أبي يوم جاءت أمي.

• • •

في الليل كانت عمته تشخر في الغرفة الملاصقة لغرفته البائسة
كان يتصور أن هذا الشخير تهديد له ربما تلاخفه حتى في أحلامها.
كان حين يحلم حلماً جميلاً بصحبة دانة، يحظر له السؤال إن كانت
عمته تحلم أحلاماً لطيفة، وهل حقاً تزور الأحلام المحلوة ليالي
الأشجار وقساء القلوب؟

كان يحص دانة، يداعب ديلها، يمسح على شعرها ويحدنها
بصمت وحذر، يرجوها أن تصبر. وتحتل ألها حتى يرول. كانت
تموء بحصته بصوت خفيض كأنها تخشى أن تسمع عمته صوت
نهامهما وتنقص عليها بلا رحمة

من شباك غرفته. نظر إلى الحوش المظلم. كان البيت الموحش
يشير في نفسه غرائب الشعور. كان قيراً نجذته وجده ثم قيراً لأحلام
أبيه وزوجته. قيراً لأمه التي خرجت منه مظلومة. وهو الآن قبر
لطفولته ومشاعره ولا يرى من عمته غير قابض للروح. والدنان
الذي اعتاد قبر الأحلام والمحب.

• • •

داه يا حصه لو تعلمين كم كرهت عمتي براءة دانه. كرهت
سعادتي بها، قتلتها، ثم كرهت سعادتي وحيي لك مهل كثير عليها
أن تقتلك؟

سيان عندي الآن. أخرج من سجنني أو أبقي فيه مدى الحياة.
ما الحياة من بعدك يا حصه؟ يوم ماتت دانه عشت على أمل لم
أكن أدري ما هو. تصورت أن لحظة أخرى ستأتي وتعودني فراق
دانه فجئت أنت. حملتني إلي الأيام فأدركت أنك الأمل الموعود
الذي صبرت من أجله واحتملت حرني لفراق دانه والآن بعد
رحيلك أنت. ما الذي يبقى؟ أي أمل؟ أي حرية أبحث عنها؟ وأي
حياة أرتضيها وعيا دانه وعيالك غائبا، ودكراهما قيود حامية تكبل
فؤادي.

إنتي حتى اللحظة لا أدري كيف كان موثك. لكسي أذكر بالتفصيل
الدقيق. كيف ماتت دانه وكان الذي حدث يحدث اليوم.

لم تكن الليلة كباقي الليالي. بداية قدوم الشتاء صباب يحجب
لون الليل. ثمة سمات باردة تلاعب بأبواب الحجرات وأوراق
الحوش المتناثرة تحترق البرودة باب العرفة حين مست ضلوعه
التست نحو دانه. لمح عينيها الجميلتين مفتوحتين نصف انفتاحه.
مسح عليها، ناعما. دشا بين ساقيه.

اندشتي يا حلوتي تدفك جواربي. وإن جعت موثي بصوتك
الناعم. سأخرج رغم البرد وأتيك بالأكل.

في تلك الليلة الباردة كان الحدث.

❏

نم ودانه بين ساقيه. أفاق من العنوة إثر انصعاق باب من
الأبواب.

تحرك فلم تصطدم قدماه بجسد دانه. هلع. امتدت كفّه. أطال
فليل السراج، رفعه، استدار به يبحث عنها في أرجاء الغرفة لم يجد
لها أثرا، ترايدت ضربات قلبه، تسائل في داخله «أين ذهبت؟ هل
هافته ويبحث عن مكان أكثر دفئا؟ أم هل تسلت لغرفة عمته التي
لا يفصله عنها غير باب قرضت الثعثران نصف قاعدته.

حين فاجأه المخاطر عصف به الخوف. لم يشأ أن يدمو من
الباب الفاصل الباب الذي جمّت مفاصله فصار يصدر صريراً
مزعجاً يسمعه في بعض الليالي حين تقطعه عمته لتأكد من بومه.
أو ربما لتأكد أنه لم يحلم ويسافر بحبيته إلى وجه أمه.

أسرع إلى البافذة. فطحها. لقحه البرد والظلام. خاف على
دانه. سار على أطراف أصابعه خشية أن تثير خطوته الصحو في
عين عمته. فتح الباب. حرج والسراج الواهن بيده سار في سكوت
الحوش، الظلام يربى على كل شيء، حتى القمعر تلك الليلة تخنبا
وراء غيمة فضية.

ولف... تحولت عيناه في زوايا - اللوالبين - وعلى حواف
البركة وحياش الفحم المتكدسة أمام باب المطبخ. جند كل
أحاسيسه، ركزها في أذنيه، انتظر أن يسمعا.

تناهى إليه موازها المتقطع الأتسه بالتهديد مشى باتجاه
مصدر الصوت وحين اقترب فرك عييه ليتأكد من أن التي أمامه
هي دانه.

كانت مستنقبة على بطنها مستسلمة بجسدها لهز أسود. لم تمأ بوجوده. في وجهها شبه إغماء. اقترب أكثر لم تتحرك. انبطح على بطنه. أراح السراج بجانبه. وأخذ يراقب المشهد. عينا دانة تشرقان حتى راوية قلبه. أخذ يتأملها آثاره المنظر. دغدغ أعطافه، بحث إلى جسده رعدة عجية رغم سنواته العشر تمنى لحظتها لو كان هراً يعانق دانة.

كانت الحركة المتناغمة بين الهز ودانة تثير فضوله. والشهوة التي تنتقل منهما إليه تحرس كل صوت حوله. لكن الخطوة التي لا يحفظها شفت الصمت والسكون صرخ صوت عمته فجأة - شتر قاعد تنوي؟؟

جعل... ظل متبلحاً مكانه لا يقوى على الحركة. جعلت دانة التي التمع الخوف في عيها، لكنها ظلت عاركة في شوة استسلامها للهز الذي يواصل حركته العتيرة ذلك التمازج الغريب الذي أبهى دانة ساكنة رغم صرخة عمته حرك الأستلة رغم الخوف الذي شل حركته.

مدت عنته يدها، سحبته، رفعت عن الأرض لم تحدفه إلى مكانه، واستدارت لدانة تهش الهز عها لكنه لم يبال. ثار غضبها. مدت يدها. أمسكت بهما شدتهما بعنف كلاً بيد فانفصلا. شيء ما تطاير حتى وجهه الرامس على الأرض فاحت رائحة كما «الطلع» في موسم. انتهت باز مؤاده في اللحظة التي أطغأت عنته دار دانة.

داهمه شحور حاقق. تمنى لو كان رجلاً يملك القوة فيكون بمقدوره أن يفصل عنق عنته عن جسدها. لكنها كانت دائماً

الأتوى. بعد أن حذفت دانة والهز، التفتت إليه، مدت أصابعها دون رحمة إلى أذنيه. ضمعتهما حتى كاد ينهارى من ألمه جرتة إلى عرقته. وقيل أن يصدر كلمة كانت كتمها نهال عليه. لم يكن قادراً على مقاومة حقدتها وشرها رغم أن حريقاً يشب بداخله ويستعر. لم تعاديه حتى تأكدت أنه ابتلع دموعه. وابتلع معها متعة اللحظة التي شاهدها

لم ينم تلك الليلة. مشهد دانة والهز معاً يوقظ شيئاً غريباً بتلألاً بداخله.

حس أفاضت الشمس ثوبها الذهبي على الحوش فرح إلى المكان الذي كنت فيه دانة مع الهز. تلقت. بحث عها، لم يجدها فكّر أن يحرج إلى الشارع ليبحث عنها لكنه ما كاد حتى لعل صوت عمته:

- وين رايح يا ولد؟

تخشب لسانه، اقتربت منه متوعدة:

- لو رجعت تلك القطة الوسحة. سأقتلها.

لمح مغالبها أمام عينيته تكبر تكبر. تصوير سكاكين نرح به إلى حفرة صيقة.



«هل سمعت دانة ذلك الوعيد؟ هل قصدت أن تهجرني وتلوع قلبي ولهاً وخوفاً عليها؟ كيف طاوعتها نفسها؟ هل كان الحرف أكبر من حيها لي؟ هل كانت تحبس بأنها لو عادت فستلقى عقاباً يؤلمني فضّلت البعد والجفاء؟

إيه يا حصّة، لو تعلميس كم عذّبتني فراشها ولو كنت أعلم
أن عودتها هي نهاية عمرها لما تمّنت أبداً أن تعود. كان حصّا
ينتظرها وشتان ما بين موتكما.

في لحظة موتك عشتك، ودعشتك، لكن موتها كان بعيداً...
بعيداً.

امتدّ شوقي لدانة. لكل شيء فيها. لشواربها. لسانها الذي تلعق
به أطراف أصابعي ليدلها الذي تهوّه طرباً كلما لمحتني.

كنت كل ليلة أحلم أنها عادت. وحين يتبحّر الحلم أبحث
عنها في النهار أنظر وأصرر لكنها لا تعود. لم أفقد الأمل. كنت
أدري أنها تحبني. تشاقي وأنا لا بد هائلة رغم الغوف واحتمال
الشر.

كيف عادت؟

كيف جاءت ذلك اليوم؟ وقفت بجسدها الجميل فوق حافة
السور. وعكست الشمس خيالها على الأرض أمامي. لم أصدق.
رفعْتُ إليها وجهي، أسرعْتُ. فتحتُ لها ذراعِي فألقت بنفسها لاهتة
بينهما. وكأنها ترتني على فراش من القطن.

شدّتها إلى صدري. فمادت متألّمة. شعرت أن وزنها ارداد
داعبت جسدها، تلمّست برقبتي، فوجئت بانفخاخ في بطنها. ردتُ عليه
بلطف مرحت. كدت أصعب في فرحتي لولا أن تبتّحت أنني أعيش
في بيت تسكّه عمتي. أسرعْتُ إلى غرفتي. أحفيت دانة في فراشي
وجلسْتُ أراقبها وعيني لا تشيع منها حتى بدأت بالتألّاب وحين
أغضت، خرجت إلى الحوش كي لا تلحظ عمتي غيابي.

يومان

نحجت أن أخفي دانة داخل خراشي الصغيرة. وقد ساعدتني
بركونها. وعدم مواتها كنت أجلب لها الأكل بحدري واصطدت
لها عصموراً انتهمت به شبيهة وتلمّطت بدمه. وفي الليل حين أتأكد
من نوم عمتي. أدهشها بجائني في الفراش. فتدسّ أنفها في محنتي
وكانها تخشى أن تسمع عمتي أماسها.

هل كنت قادراً أن أخفي شيئاً من عمتي؟

في اليوم الثالث عيسى النوم لم أحملها إلى الحراة فطلت
بقريسي في الفراش. وحين رأتها عمتي التي جاءت لتوفظني
صرحت.

تظاير الشر من عينيها. همزت دانة لتهرب. لكن ثقل جسدها
جعلها تتوانى. فسقطت بيد عمتي.

أمسكتُ بديلها. تدلّى جسدها كذبيحة. أشارت إلى بطنها
نظرت إليّ عاصبة.

- شوف. كرسّ الهرّ الأجرب بطنها. لو خلياها. سيترسّ
اليث بعيالها.

تحركتُ عمتي ودانة لا تزال تدلّى من يدها.

مرتجماً تبتّها. توسلتها.

- عمتي: «الله يحليك» أتركها.

تهرتني

- احرس يا كلب. هذي الفطة بلوة ابتلتها بها

أسرعت بحطوها وأنا ورامعا أنكي. استرحمها أتوسلها لكن

توسلي وطلبي الرحمة لم يجد طريقاً إلى قلبها الذي لا يمكن أن يعرف الرحمة. لقد حرمتني من أمي. ألقت بها وبملابسها إلى الشارع. والآن تريد أن تحرمني من دانة ولم أكن أدري ما الذي ينتظر المسكينة.

حين ابتعد صوت دانة غامت بعيني سحابة سوداء. حاول أن يظن، أن يقف. لكنه سقط فاقد الوحي.

كم من الوقت مضى، يوم؟ يومان؟ أم هي مجرد ساعات مرّت كدهر ثقيل؟ حين أفاق شعر نفسه مبللاً. كان قد نزل على نفسه. تألّفت حوله مفعراً متصوراً أن ما حدث كان مجرد حلم كره. لكن حينئذٍ همته الناريّتين كانتا تقفان في وجهه.

تنفس سؤاله بطيئاً:

- همّتي. وين دانة؟؟

جاءه صوتها كاللظمة:

- راحت، خلاص ارتحنا منها.

- واه... واه... همّتي.

ابتسمت ابتسامة مأكرة. أدرك أن الحلم حقيقة، صرخ معجوهاً:

- «قلّفتها في الأدب»⁽¹⁾.

لم ينتظر إجابة. وثب. جسده يهوى بالحرارة والغيظ والحر.

"دانة كانت فرعة. تتلوى تحاول أن تتخلص من يد عمتي

(1) «الأدب» بيت الخلا.

لكها فشت. وأنا ألاحق فرعها ماكياً. دليلاً وصرخاتي التي تشق قلب الصخر شامت. وهمّتي تسرع نحو «الأدب».

خطر لي أن عمتي تريد سجنها هناك حتى يفرغ انتفاخ بطنها ثم تحررها هي الأخرى من أولادها كما حرمت أمي مني. ما كنت أتصور أن عقاباً شديداً غير هذا سيحلّ بعمّتي. وكان الذي حدث أكبر من ظني.

وصلت همّتي الأدب وسلا رحمة هوت بدانة إلى الفتحة الصغيرة.

انحشرت المسكينة في عرصها حاولت القفز. صفعني المنظر. ألقيت بنفسي إلى الأرض تحت أقدام عمتي مددت ساعدتي لأنتشل دانة. لكن قدم عمتي داست على يدي ثم على رأس دانة لترجفها داخل الفتحة. فمادت المسكينة مستغيلة وعبّاها تقدحان برعب عجيب.

سقطت دانة وهي تصدر صوتاً وكأنها تلعن همّتي.

أسرع حيث دانة اتبطح على بطنه. دس كامل وجهه في الفتحة، تقافزت عليه الصراخير، لم يهتم، نادى والألم يمزقه:

- دانة. دانا... دا... نا...

ولعناً جاءه صوتها:

ميؤ... ميؤ... عيؤ...

كرّر نداءه. فكزّرت المواء. لم يكن يأبه برائحة المرحاض التي نفشت كل عفونتها إلى صدره. كان فقط يحس بمواء دانة يحترق رتيه خطأ مستقيماً يتوسّل. يسترحم. النداء يكيه. يرعشه. يحثه أن يفعل أي شيء ليخلصها من سجنها الرهيب.

ناداها بصوت شحنة بالإصرار:

- دانة. «لا تخافي». «الحين أطلقوك».

مادت. بصوت أعلى كأنها تصرخ بوعده. وتشجعه عليه.

امضت إلى الحوش.

إلى بركة الماء. نزع جبل الدلو. وعاد مسرعاً به إلى حيث دانة تنتظر الخلاص. أسقط الحبل في الفتحة حاول أن يتابعه بعيه لكن الظلام كان دامساً. أخذ يحركه ويهزه. أملاً أن تلمحه عيناها اللتان لا تشعان إلا هي الظلام، فتمسك به. يحس ثقلها. ويرفعها. لكس الحبل لا ينقل. وعيسا دانة الملوثتان بالمصلا لا تلمحانه.

لم ييأس. كرّر المحاولة ناداها:

- الحبل يا دانة... تعلقي به.

لكنها لم تغلق. وظل صوتها الواهي ينيئ أنها ما تزال حيّة.

مضى النهار

انزوى في غرفته تائهاً، حزياً، ثم يأكل لقمة. كان يحس بمعذته ثقيلة وكأنه انهم قدور التيئ كلها. كان يخشى لو أنه ابتلع لقمة سيفطر أن يقضي حاجته ودانة هناك. فكيف يحتمل؟؟

في المساء. دخلت عنته:

- قم تعش.

لم يحرك. ظل رأسه معانقاً ركبتيه. صرخت به.

- ما تسمع. قم تعش

ردّ دون أن يحرك وضعه

- مو جوعان مايبى أكل.

لم تتركه لحزنه. اقتربت. شدته من عنق دشاشته. رفعت

وانصبت به.

لمح أباه يقف عاجزاً عند باب الغرفة. حركته عنته تزوجه إلى الأمام والحلف.

- تعاند.

صوته منكسراً:

- ما أشتي يا عنتي.

- تأكل عصبك

أملت بكاءه المكتوم. حرك حسان الأب الضعيف. اقترب

مها:

- غلبه الحين. يأكل إذا جاع.

حاول أن يخلصه من قبضتها. لكنها أحكمتها عليه أكثر.

وطالت أباه يحدّه:

- لا تدخل. لازم يأكل.

توسل أبوه:

- يا بنت الحلال. ارحمي الولد.

تشجّع. اقترب. خلصه من القبضة احتضن جسده المرتمش،

حاول أن يقنعه.

- لازم تأكل يا سالم.

صرح:

- أنا شبعان. أتركوني. مايبى أكل. مايبى مايبى.

ارتفع صوت عنته مهتداً.

- إن ما كليث. أخلي العصا تاكل من جنبك.

بصوت ضعيف أمرها أبوه:

- روجي أنت. قالي نلحقك

ثرثرت بالسباب عليه، على القطة، وعلى أمه التي لم تسر أنه
ولدها. خرجت. أعلق أبوه الباب. احتضنه. أجلسه. أحد يحاول

- يا سالم. لا تعاندها

ألقى برأسه على الصدر الذي لا يتذوق حنايه وأعلن
احتجاجه:

- ليش رمت دانة في «الأدب»؟

مسح على شعره:

- الشكوى لله. ما تعرف عمك؟

- أريد دانة. أريدها.

- أجب لك غيرها. بس قوم لتاكل.

أصر:

- ما أشتهي الزاده «كبدى تلوع ويطني يعورني».

حفص أسره وجهه. وما كادت شعته تلامسان خده المبلل
بالدموع حتى اندلق القيء من فمه تلوثت دشاشة أبيه الذي ابتلع
قبلته. مسح وجهه، ساعده ليقوم، تاركاً المكان ملوثاً. أجلسه على
فراشه. كان يتعتم «لا حول ولا قوة إلا بالله».

- نام وارتاح. يمينك الله عليها. ما باليد حيلة.

تركه وحيداً بهزئه. وخرج.

• • •

صار للأيام لون وطعم آخر.

ماتت دانة. حلمه الجميل وأنيس وحدته، لو كانت تعلم أن
لحظة الميلاد التي جمعتهما بالهرمي عتق لحظة الموت: هل كانت
استسلمت للنشوة؟

ولو كانت تفهم كراهية صته لعناق الأجساد الدافئة. هل كانت
سلمت جسدها للحب الزائر في تلك الليلة الباردة؟

سكن الحزن قلبه، أيامه ولياليه مد أن غارقه دانة. لم يبق في
فؤاده غير حقد ديس لعنته لا يحرق أن يفجره. رهد في اللعب،
والنوم، والأكل. وحين يضطر لقضاء حاجته كان لا يقترب من بيت
الحلاء. كان يتصور أن دانة الميتة هناك سوف تتعرف على رائحته،
ستعابه، وتؤبّه لأنه يُسقط فضلاته على وجهها الجميل. تشرّد في
الشوارع يفرغ في زواياها البعيدة عن العيون أحمال بطنه. أو في
الطرز المهجورة

كره البيت كل رواية فيه كرهها إلا ذلك المكان الذي جمع
دانة بالهر. يجلس فيه. يسترجع اللحظة التي أروعته. تحوم روحه
حزينة تتذكر. وتتأق ثم تفرّ منه إلى ذلك المكان الذي صار قبراً
لوجه دانة.

• • •

«كان وجه دانة هو الوجه الذي أحبيته بعد أن غاب وجه أمي.
صارت هي سلوتي، ومؤنسي، لم تكن الموضع عن أمي لكنها
كانت مصدرراً لفرحي. حين أسمع أنفاسها أحسّ بأنفاس أمي تدفّق
وجهي. وعندما تموء أتذكر حزاوي أمي وكلامها الحنون.

عقمتي الشريعة التي حرمتني وجه أمي كرهت وجه دانة.
حرمتني منه. ثم كرهت وجهك يا حصّة. كرهت أن يسكب السلوى
والحب في حياتي.

أليس أنت يا حصّة؟ لا تقنّني. هيا. اهربي. لا تكومي خوافة
مثل دانة.

عقمتي. سعيديك وتقتلك. اهربي... يا... حصّة... آخ...
آخ.

• • •

هزّت صرخته المكان. دوى الصوت معلماً تفجّر نوبة أخرى
هرعت الممرضة. جاء الطبيب. أمر بإبرة أخرى. سرى المخنر في
ذراعه. هدا... نام وسيل دموع يُملّح وجتيه.

حين استعافت عيناه. دارتا في أرجاء الغرفة سريعاً ثم أغضضهما.
كان يظن نفسه غاطساً في الحلم. لكنه حين أعاد فتحهما، ورَكَزهما
على محتويات الغرفة، تأكد أنه في السرير الأبيض. يستعيد ذكرياته
التي تلازمه لحظة بلحظة، يتألم، ويحس بالاختناق، كأن الدنيا
تحولت معصرة كبيرة تهرسه بين رحاها.

حاول أن يجلس. أحس ثقلًا في رأسه. استرحى. سلط نظراته
على زجاج الباعة. لمح الأفق رمادياً كثيباً. حتى النسمة واقفة لا
تحرك ساكن شيء.

سمع حركة الباب انفتحت لمع الممرضة، اقتربت تحمل بيدها
جهاز الضغط. استلّت ذراعه من تحت الشرحف. لم يقاوم. أحاطت
ذراعه بلسان الجهاز تمحت بالصاعطة ثم أرحتها. كزّت العمليّة

أكثر من مرة. حين تأكدت ابتسمت:
- الحمد لله. الضغط ممتاز.

ابتسم مشيراً إلى صدره:
- الضغط هنا.

بان الاهتمام على وجه الممرضة. اقتربت أكثر. وضعت كفّها
على صدره:

- هل تشعر بالأم؟

- لا... فقط أحس بثقل كبير على صدري.

- سيأتي الطبيب الآن ويطمئنك.

سحبت كفّه. ركّزت إصبعها على رسمه، وأكدت:

- والنفس أيضاً ممتاز.

- ورأسي؟؟

- هل تشعر بصدا؟

- شيء أكثر من الصدا.

- إذا جاء الطبيب. قل له. وسيعطيك العلاج.

أشاح بوجهه وتنهّد:

- الطبيب لن يزيل عنتي.

ريثت على كتفه:

- لا تتعدّد الأمل. تصبر.

دخل الطبيب. حين لاحظ هدوءه في السرير أحس ارتياحاً.

بادره:

- ها يا سالم. كيف الحال؟

أجاب سالم.

- لا أريد أن أبقي هنا.

- أنت تميل. تحتاج للعلاج. منساعدك.

- لا أريد مساعدة. أريدوني إلى السجن.

فَرَدَ الطبيب فُراحيه في الغرفة:

- هنا توتاج أكثر.

اعترض صوته.

- تعطوني أيراً أصير أحلم. تلاحقني كل الوجوه.

بلطف جاء أمر الطبيب:

- اتس كل الوجوه. نريدك فقط أن تتذكر وجه حصّة.

احتاج:

- الحقوها... غلّوها تهرب.

- معن تهرب، من الحيل؟ أو منك؟

- لم يكن حيلي. والله. والله.

استنفر الطبيب ليصطاد اللحظة. مال إليه:

- حيل من إذن؟

- حيل حمتي. أنا ما قتلت حصّة. صدقوني.

انخرط في اليكاه.

نظر إلى الطبيب بعينين مشائتين بالدموع. جلس الطبيب على

طرف السرير امتدّت يده ضمعت على رأسه:

- هل تشعر بألم؟

حوّك رأسه في الاتجاهين:

- أحس ثللاً.

ترك الطبيب رأسه. نزل إلى مكتبه. أحسهما ترتجفان. صغط

عليهما برفق:

- هذي نفسك يا سالم. إذا قلت لنا كل شيء ستوتاج. ويرتاج

رأسك.

- ماذا أقول؟

ارتجاج الطبيب لتجاوبه. قال بهتان:

- شوف يا سالم. ذاكرة الشاهد. لازم ما تخونه. تذكر كل

شيء

- أنا بس شفت حصّة. والحيل حول وقتها.

حفره الطبيب:

- تذكر قبل ما تشوفها ميتة. شنو صار؟ تذكر.

توسّل:

- ما أقدر. رغم أن كل الوجوه تلاحقني.

- وجوه من؟؟

- دانة، أبي الحوّاف. صمتي. أمي. ووجه حصّة.

كست تحها؟؟

- وايد. وايد.

لاطفه الطبيب:

- شوّقني يا سالم أن أعرف عنها كل شيء

- صعب. صعب. وجهها الميت يعذبني.

- حاول يا سالم.

- أرجوك. اتركني لوحدي.

سأرمه الطيب:

- إن تركتك هل تتذكر وتحكي لي كل شيء؟

- أحاول. أحاول.

- هل أعتبر هذا وعداً؟

أوماً برأسه. خرجت الكلمة صادقة.

- أعدك.

• • •

ماذا يقول؟؟

ذاكرته التي أتحت منذ الطفولة بموائد الأحداث تكاد تكون غاوية. لقد مرّت السنوات سلسلة من الأحلام الدامية، كان مجرد شيء تحرّكه عمّته كما تشاء كلما أشرق له حلم قتلته. وكلما أضاء فجر بأعماقه أطفاله. وكلما أحسّت ببادرة شجاعة تناقّب سحفتها في مهدها.

حرمة أمه. يمتّعت منها ولم يكن بعد بهل من حبسها إلا القليل. حرمة من دأته التي رافقت يتمه وأتسته. ثم صكّت أبواب الحياة في وجهه عندما حرّمت من المدرسة. الملاد الذي رقه هي نفسه. والمكان الذي حمى نصف أيامه من وجه عمّته وشرها وانفجارات غضبها التي لا تهدأ. كل الجوع الذي كان يحسه في البيت أسمعته المدرسة. عطف عليه المدرسون، أحبّوا ذكاه. اهتموا به. شجّعوه فصار يلتهم الدروس والمعرفة. أحبّ كل الأيام. وكره يوم الجمعة الذي تعلق المدرسة فيه أبوابها ويصيح أمامه باب عمّته مثل جهم الحمراء.

كره شهور العطل وخاصة بعد أن فقد دأته. وحدها كانت تسليه. تقصّر الأيام والشهور، وحين انتهت معها سلوته. بحث عن مصدّ آخر. وجد في مكتبة «الفريج»⁽¹⁾ ضالته كان يجلس ليقرا القصص وحين لا يستطيع إكمال كتاب يشغق عليه صاحب المكتبة. يعيره إياه فيدسه تحت دشاشته خشية أن تلمحه عيون عمّته وتعرّقه.

صارت القراءة متعته. وسفره الدائم بين الكتب فتح مداركه، علّمه وأوقد ذهبه، انشغل بها. وحفّمت عنه مصائب عمّته التي تلاحقه. صار أكثر احتشالاً، وصبراً، صارت المكتبة جنته والمدرسة بستانه الأخضر.

• • •

لم تكتمل سعاداته في المدرسة، ثمان سنوات غرف من بحرها وأنزع حزنه فيها. لكن عمّته التي شعرت به بتعير وتكون بداخله روح جديدة عزّ عليها ذلك، فسلطت سيفها. أعلنت قرارها لأبيه. وهو واقف بينهما بين الأمل واليأس.

- لازم يترك المدرسة.

ارتعش. وارتعش صوت أبيه.

- ليش؟

- المدرسة ستعلمه - الطبايع الشينة -.

سخر أبوه منها

- المدرسة تؤدبه وتعلّمه وياكر يأخذ الشهادات.

(1) الفريج: الحق الصخر

- وماذا نسعيد من شهاداته؟

لحمس صوت أبيه.

- يشتعل. يكذب علينا وعلى روحه.

رفضت عمته:

- ما نحتاج مكذبة.

ارتفع صوت أبيه:

- ماذا يفعل بالبيت؟ يقعد فيه مثل الحريم؟

غمرة الفرح وأبوه يدافع عن حقّه. لكن عمته سرعان ما وجدت

الحل:

- يساعدك في الذكّان.

شوّح أبوه بلذاته

- لا أحتاجه يساعدني. ما زلت بعافيتي.

بحثت عن مفرخ آخر:

- باكراً إذا أخذ الشهادات يكرّر رأسه علينا.

وغرست إصبعها في وجه أبيه:

- عليك إنت بالذات

راضياً ردّ أبوه:

- حل يكرّر رأسه. المهم يتعلم.

تراكم غضب في صوت عمته:

- شوف عاد. يكفيه ما تعلّم. ما يروح يعني ما يروح.

لأول مرة يدخل أبوه في عراك مع عمته كان بداخله يتصمر

لأبيه ويتنمّى أن يتصرّ على عمته. ويظل باب المدرسة مفتوحاً له.

وتظل الكتب مورده الذي يستقي. ويظل مع رفاق المدرسة الذين

أحبهم واعتاد عليهم ونفس عن آلامه معهم

لكن الشجار انتهى بخذلان أبيه وخذلانه. حاول أن يشتدّها

في سرّه لكنه تصوّر أنها سوف تسمع شتيته وتنفض عليه. نظر

إلى أبيه. شعر أنه يكرهه في تلك اللحظة كما يكره عمته وحين

اقترب منه ورّيت على كتفه منصوّراً أنه يواسيه. شعر وكأنه يدقه

نحو الأرض. فتهاوت روحه قبل أن يصرخ أو يتوسل.

• • •

اتركت المدرسة. ودّعها كما ودّعت حصن أمي. ووجه دابة.

لكشني بداخلي قرّرت أن أتحدّثها. مساعدني أبي في ذلك وكأنه

يريد أن يكفّر عن ذنبه وتنازله. سمح لي أن أترك الدكان، أذهب

إلى رفاقي. أتعلّم منهم ما يتعلمونه كل يوم. وأواصل علاقتي

بالمكتبة. أستعير الكتب. أجلس في الدكان أقرأ وأحكي لأبي

بعض الحكايات والطرّاف والمعلومات.

فرحت عمّتي باستسلامي. حين اقترت مني في اليوم التالي

نقرارها. حاولت أن تبدو ووداً. قالت:

- شوف يا سالم. أنا أريد مصلحتك. أريدك أن تتعلم تجارة

أبيك.

أومأت برأسي كما الكلب الذليل.

قلت في نفسي: أكتسب بعض الرضا. وأفعل ما أريد. لم أهد

حتى أضيع من طلباتها والمشاور المرفقة التي تكلّفني بها. بل

صرت أسعى أن تطلب. كنت أنا الذي يادرها:

- عمّتي هل تريدني شيئاً من السوق؟

تطلع إلى وجهي وانكثم عليّ.

- «مالت عليك». شئو هالآداب؟

لكنها استراحت لخنوعي الظاهر. صارت تكلمي. لم ترتدّ
أن ترسلني إلى بيت الخياطة لأحضر أثوابها أو بيت «الدلالة»
لأحمل لها حاجات طلبتها منها. كانت هذه الأوقات تساعدني أن
اسرق من الزمن، أنتعد عن البيت لأجتمع بزملائي. أخذ الدروس
بعجالة. وأنهم بسرعة شرحهم. أحلّ المسائل الحسابية. وأكتب
موضوعات الإنشاء التي يقرؤها المدرسون عليهم.

كان أهم ما كنته حكيتي مع دانة التي أيكث بعض زملائي.
ونقلوا لي إعجاب المدرسين بها.

احتفظت بالقصة. ورسمت عليها صورة دانة ونقشت اسمها
بخط كبير. وكنت أخفي الورقات في مكان أمين خشية أن تذهبها
صمتي كما ذهبت دانة.



ظننت عمتي أنه استسلم لقراها اللطالم. فرح أنه أشاع الراحة
بداخلها وحقّ شرها عه. لكنها لم تكن تدري بالخط المستقيم
الذي بدأ يشقّ القنات داخل رأسه. ويقوم أفكاره ويجعله يترقّع
عن كل عداياته، عن حقدّه، وكرهه لها. قرأ الروايات. عرف كم
تعذب أبطالها وهم أطفال مثله. وعانوا الظلم والعدو والفقر. وكيف
استطاعوا أن يتغلبوا على آلامهم ويصبحوا عظماء. تعيّر سلوكه في
البيت. كبرت بداخله الثقة تجاور كل أفعال عمتي. ظهرت عليه
بواذر قوّة. أفزعت عمتي. شعرت بأن الحصن الضعيف الذي تحاول

كسره بدأ يتصب ويقوى. ويخصر. طمخ شبابه أمام عينها. أمرحت
هذه الرجولة قلب أبيه. وكرهتها العمة التي سمت لوالدها.

كان يلحظ نظرات عمتي. يحسّها تحرق ضلوعه. وبدأ يدرك
أن شيئاً غريباً يعمّات رأسها الشرير. صارح أباه. وحين كثر خوفه
ضحك أبوه وقال:

- من كثر ما حذّبتك تنصوّر أشياء كثيرة.

لكن تصوّراته لم تكن خاطئة. ذات ليلة تناهى له حوار عمتي
وأبيه وهما يتناولان العشاء في الليوان. هو خلف دريشة غرفته يقرأ
كتاباً. ألفاه جانباً واستمع.

- ترى الولد كبر.

قالت عمتي. فكاد أبوه أن يفض بصحكه الهارئة.

- غير يعني: تلبّعه بحروفاً للعيد؟

نهرته

- «لا تنظّره»⁽¹⁾.

- كلامك لا معنى له. غير يا الله. الولد كبر. ونقعه يكبر،

لماذا يزحكك؟

- أخاف أن تتفتح عيونه على ما يضره.

- أوضحي كلامك.

- تزوّجه.

صدمت الكلمة. اشتعل جسده. انتظر أن يسمع ردّ أبيه ليحمد

ناراً:

(1) تنظر سر

- ما زال صغيراً لا أريد أن أشقيه بالزواج.

خبطت عنته على صدرها:

- صغير؟ أنت تزوجت في عمره. والزواج يحميه.

نفخ أبوه اللقمة من كفه:

- يحميه من «شنو»؟

- من الرلّ. هل تدري من يعاشر من هالصبيان؟

أكّد لها أبوه:

- سالم ولد زين. ما يترك صلاته ولا صيامه.

لأنّ صوتها بلوم لا يخفي.

- يا حوي. الزواج ستر له. خلينا نفرح فيه.

- وهل ستقبلين امرأة في هذا البيت؟

- إيه. حصّة أقبلها.

- حصّة؟ أيّ حصّة؟

- بست الحاج إبراهيم حلوة، وعافلة، صغيرة وأربيبها على

إيدي.

- والله حائلة. جهّزت العروس. وتوي بعد كسر شوكتها.

- إن صارت طيّبة وخدم. أحطها في عيني. وإن طالت

أظافرها...

قاطعها أبوه:

- تقصدين الأصابع كلها. يا بنت الحلال. لا تريطي حبالنا

بالناس الأجاويد، بنات الناس «مو لبعة». ويمكن ما يوافقون.

- وليش ما يوافقون؟

أنثن أبوه من نبرة صوته وهو يذكرها:

- يعرفون شرّك.

- أنت ما عليك. أترك الأمر لي.

واستكان أبوه.

* * *

«لم أدق الترم تلك الليلة. كلمات عنتي مثل الدود تدبّ فوق

جسدي. تهرش عقلي بالحيرة وأنا أفكر بتلك «الحصّة». الروح

التي ستقدّمها إليّ عنتي ثم تزحفها بالظلم والقسوة. هل سأقدر

على حمايتها وأمانها؟؟ وهل سأمنحها الحب؟؟ آه... الحب.

الذي مستني رعشاته وأنا أقرأ الروايات. ويحفق قلبي مع خعوق

قلوب المحبين. أنا كم حين يتألمون. أبكي حين يكون. أفرح حين

يتصرون ويتزوجون

كثيراً فكرت بالحب. بعد كل قراءة كان يعاذلني شوق للقاء

- أنثى - عطر جسدها، ورحيق ثغرها الذي صوّره الرواة وفاح

يدغدغني، فأنمّني... ولا أجرو أن أبحث عن امرأة.

عنتي اليوم تقدّم لي العطر والرحشة. هل ستهديني «حصّة»

ثم تحلها من أرضي كما خلعت أمي. وقطني دانة؟

اعترتني لهمة لمعاقبة حصّة التي أجهلها. وترامت لي صورة

لقاء دانة بالهرّ. هل سأكون الهرّ وتكون حصّة فانتني؟

لفحتني رياح الخوف. انتصبت أمامي لحظة انفصال دانة

عن الهرّ. طوّحتي الذكري في بئر الليل المظلم. جلستني الأنكار

والأحلام المزعجة التي تناوبت عليّ.

ووجه عمتي يفتز مع كل حلم. لقد قررت. ورضخ أبي. وعلني
 أن أرضخ لقراريها وأقبل هزيتها التي لا أعرف مصيري معها
 انكسشت على نفسي أروقي التكبر لم أجروا على سؤال
 أبي الذي لا يعرف أنني سمعت حواراً مع عمتي. انتظرت أن يادري
 أن يصارحني لكن صمته طال حتى ألفت الصمت بانتظار أن يبدأ.
 أو تبدأ عمتي.

نادته ذلك النهار. لمع شيئاً بطل من عيها. مزيج من الحنة
 والتهديد المبطن.
 أعمت صوتها بحنان مصطنع لم يمس مشاعره:
 - تعال يا سالم. اجلس.
 انظر رعدوداً. وقد تكون العاصفة التي لا يقوى على صدّها:
 - نعم يا عمتي؟
 ابتسمت. كانت المرة الأولى التي يانعظ فيها ابتساماً من
 وجهها. يادريته:

- لقد صرت رجلاً.

رجل!!

دوت الكلمة في رأسه. رجل!! كيف يكون رجلاً وهناك من
 يخطئ له شؤون حياته. ويتخذ عنه القرارات؟

ابتلع الكلمة. أجاب بضعف:

- نعم. صرت رجلاً.

- والرجل. لازم يتزوج

اعتراه الخجل. خفض رأسه. وصوت عمتي:
 - خطبت لك - حصّة -.

- يا عمتي...

قاطعت:

- اسمع يا سالم. حصّة بنت حلوة. ربة بيت. بنت حلال.
 أنا اخترتها لك.

هزئ بداخله. كيف لهذه الشريعة أن تختار الشيء الجميل؟
 هل يعرف؟ هل يصرخ في وجهها ويلعن اختيارها؟ أم هل يغامر
 ويقبل؟ لعلّ شمساً جديدة تشرق في حياته رغم جهله بها. هل
 يُدبب أحلاماً ومشاعر أحسنها وهو يقرأ عن الحب والزواج. والمتعة
 والدفء؟

شعر أنه بحاجة لنسف البلاغة التي تخيم على نفسه. والكتابة
 التي تسيطر على بيت يفقد النور. طمع في لحظة إلى التغير وقد
 فاحت رائحة الأثني حتى عمقه.
 لطّف كلماته:

- «شورتك وهداية الله» يا عمتي.

شاع الفرح في وجهها. حصدت لذة انتصارها عليه وعلى
 أبيه

- بس لي طلب منك. لا تمر ناحية بيتهم. حتى لا يظنون
 بك ظنوناً مبيتة.

وجد الطلب سهلاً لا يكلفه العناء. ولم يكن ذلك يخطر بباله.

قبل أن يوافئها. أردفت طلبها بطلب آخر:

- أريدك أن تأكل زبيب وتقوّي نفسك للرواح

هل يحتاج الرواح إلى قوّة؟ وهل كان الهَرّ يقوّي نفسه قبل أن يعاقل دانة ويبرز بذرة التي أودت بحياتها؟

لم تكن لحظة التقاء الهَرّ بدانة تعارقه. كانت بذركلها تأثير قنصريرة عجيبة في أوصاله. مزيج من الدهشة، والمُذْهَب، لا تُلث أن تفرّ حين تدلعه اللحظة الأخرى المرعبة. اللحظة التي فصلت يد هَمّة دانة عن الهَرّ

كيف ستكون لحظته هو؟ دنيا جديدة سيدخلها. يجهل حدودها وعمقها، ليس لديه تجربة واحدة. وكل ما قرأه لا يروّده بالمعرفة التامة وليس بديلاً عن تجربة فعلية. كان يحلم فقط. يزوره وجه من وجوه بطالات القصص الجميلات يذاهب روحه. بلاصق جسده. يشتر وذاداً يسرد على قلبه ويشعل فتائل غريبة. هل يلجأ لبعض زملائه؟ لصاحب المكتبة؟ أم يلجأ لأبيه الذي تروج ثلاث مَرّات وعرف طعم المرأة.

أباماً وليالي أفضاء التاكسير. فقرّر أن يختلي بأبيه بعيداً عن سمع صوته.

حدث أبيه الودود، بصالحه الرقيقة، شرحه وعدوية الخوض في تفاصيل مبهجة أرعشته. أشرعت أبواب الحلم الجميل لأيامه المشقة. لكن هذا كله لم يزحرح الحوف الرابض كصخرة ثقيلة فوق صدره. لم تغيب عنه الوجوه التي عديتها عَمته وأدمتها. وجه أمه. وجه دانة. كان خوفه يتضاعف كلما فُكّر بالوجه الجديد القادم.

• • •

وجه حصة.

جاء يقطع بالحب. يذوّ السحاب السوداء التي زرعتها عمتي في سماء البيت. أستعيدة الآن. تأتيني أنسام الليلة الأولى وأنا ألملم في رأسي ما قاله لي أبي. أتذكر تماماً كيف بدأت.

كشفت عنها العباءة. اتسللت عن شعر يفوح بالخمر. وحين رفعت «اليوشية» انبرى لي وجه كالهدر. لم أصدق. هل يُعقل أن تهديني عمتي قمرًا؟؟ كنت أتصوّر أنني سألقى وجهاً بشعاً جامداً، كوجهها. لكن الوجه الذي رأيت جعلني أشك أن عمتي رأته قبلي. وجه جعلني أعفر بشاعات كثيرة لعمتي. حصنت الوجه، تأملت عينها الرائعتين. خجلت مني. أسبلت جفنيها فانفرشت رموشها تكاد أن تصل إلى عيني مثل القفّة.

لامستُ بأطراف أصابعي كل الوجه. أردت أن أتأكد أن هذا الوجه لي وحدي، مررتُ عليه مروراً ناعماً أختشئ أن أخرج نعوته. حمت على ثغرها المستدير مثل العنة المستوية أن يتعصر ويتألم

كانت مستسلمة، مستعذبة حثاني، سعيذة بانهارني. اقتربت بوجهي للألمس المرأة الصافية. فاحت رائحة عذبة دَكرتني برائحة أمي. ورائحة دانة. رائحة شَقَّت السكون كله شعور غريب طاف غشيت أن يتعجر ويؤذيها. يتقرها مسي وأنا الذي كنت وديماً مع دانة احتضتها. دمست رأسي كله في صدرها. في لحظة نسيت كل ما قرأت. وكل ما علّمني إياه أبي.

استوى ظمأه بعد الجفاف. صار كهية الشموم. حصّة أمامه
قلعة محصنة. انتظرت حتى يأتي فارسها. هو الآن الفارس. وهي
القلعة التي تثير فضوله وشوقه الرابض

قفز إلى السور

صورة دابة تقفز.

تحطى المسافات والفواصل يرفق

دابة تقطع المسافات.

هرع إلى الباب الموصل. حصّة مستلمة

هو الهر. تدفقه لحظة التمازج بين دابة والهر يريد أن ينطلق.

حاول دفع الباب العذري. صرخ من حوله كل شيء. أحسن يدأ

قوية تشدّه تعطله. تفصله. وجهها يتعد عن وجهه. يتصب وجهه

عمته. يشرع أبيابه. يرى مخالبا تشجّه إليه. تنفرز في لحمه تهاجر

فواء. تدور به الأرض. تطلّو حه الريح وتنفخ سموماً حارقة. حاول أن

يتحدّى. ويطلق الأشعة في وجه الريح العاضبة. مثل بحار تاه في

أمواج الرغبة. تلاحقه سيوف. وأنياب تقلقه نحو الصخور. يرتطم

جسده. يسقط وإعاً متعرّفاً لأهثاء ينظر إلى وجه حصّة. مبللاً حائراً.

مسته يكهما أحسن ارتعاشتها تنفضه وتعذبه. من عيبها أطلّ التوسل

والنداء. لكنه نداء لا يمنحه القوة ولا يحرك ساكنه.

عله ضعفه أثقلت جسده رجاوة ودبل شوقه. عابت كل

الأشياء من عيبه إلا وجه عمته ينفض على الوله والرغبة يسلمهما.

ويدلفهما.

حزيناً أنطوى على نفسه نظراً إلى وجه حصّة. لم يكن هو

الذي يراه كان وجه دابة يكي وكأنه قد انفصل لتو من الهر.

مضت الليلة الأولى.

وجه عمته في الصباح بلا مطلق يستفسر عن - العلامة -

وصته الدليل يواجهها

ليثتان...

ثلاث

كرّر المحاولة كانت رغبات جسده تجرّه كل ليلة إلى موت

جديد. كفّ عن المحاولة آملاً أن تقوى حيائل شوقه ليستلقها

بجدارة تليق بسور القلعة. يدخلها آمأ. لكن الريح تعاود عصفها

وتطلّو حه. فيرتمي وحصّة لأبدية بجانبه بانتظار المطر والمطر لا

يأتي. تحسه يهمني يوعد جديد.

مرت أسابيع

صار يهرب من وجه أبيه. من سؤاله البابت كخنجر. من وجه

عمته الشامت الغصوب لكنه لم يكن قادراً على الهرب من وجه

حصّة الذي بدأ يتغير. تساقطت زهوره. وهى جسدها تحت ديب

جسده العاجر. لكنها تصبر. تعطف عليه. وحين يمدّها بغث جديد

تصدّق الوعد. وتلمحه الأمل. تندب إليه القوة. يقبل على أرضها.

يشمر على أعشابها. يحوّص بطن التربة الندي. يرفع العأس. لكنه

يهوي قبل أن يصل القرار الذي يريد.

دسوع حصّة تعذبه. آتات صلرها نشق صدره. يعرور الأيام

صارت كالعود المعطوب. كالنحلة العارية. لكنها ظلت كبيرة بصبرها

وصمتها. تشدّ أزره. تحمي من ضعفه. تساعده بطلبها إليه:

- لا تستعمل.

استسلم لدعوتها وارتاح. كانت كل ليلة تُطبخ برأسها على صدره. فتتَرَقَّع في قلبه الأصصان، ترتوي على جسده زهرة ترتوي من لهفه وحبه، ترتضي به غيمة تهطل خيرها عند نافذة القلعة فيتبعش الريح. تصير الليالي مبهجة. حصّة دانت التي يحتويها بين ذراعيه. يدفنها شبابه. يسليها بالأحاديث والحكايات ويسمها الشعر الذي حفظه. كان جسده يتوق. ويحتاج وجسد حصّة يوح بعطر الترقّب. والفأس الذي لا يقوى على اختراق الأرض الصلبة يكتفي برش الماء عند الباب.

الليالي تطول. تتراكم شهور. حصّة تملؤها بالهواة رغم عجزه. صابرة حنون. والليل وحده مواعيد للقاء والبهجة. في النهارات لا يكاد يراها. يعود ظهراً من الدكان مع أبيه. يراها وهي تتحرك بخفة ما بين المطبخ والديوان. ترفّ بثوبها المنقوش. تجهز الطعام له ولأبيه. ثم تلعب لتأكل مع همتة.

اكتشف أن حصّة ليست له وحده. وأن المحالب التي أهدتها له تشاركه حلائه. سحرتها للخدمة في البيت دون رحمة. كان كثيراً ما يلحقها في المطبخ وقد تثلّ ثوبها واسودّت وجنتها من «سنان» المواعيد. وتلبّد شعرها الناعم. وحين تخرج إلى الحوش يتبعها، يصيدها، يلاصقها. فبتعب عنه تهرب. وتخرج من لحظة هروبها رائحة الطيب مختلطة بالمرق. يتظرها حتى تدلف إلى غرفتها. يحضنها يشوق. تصدّه وحمرة الفجّل تطفو على وجهها.

■

- ساستحم أولاً.

مع وشوشة الماء وحركة الطاسة يسمع حركة جسدها. يتصوّرها تسليخ جلدها. تترع عنه التعب. ثم تخرج إليه نديّة معطرة شهية مثل رمانة. وكأنها تدعوه أن يفتتها ويلتهم حباتها: حبة، حبة. لكنها تدعه برفق منها متأثرة متوشلة:

- عظامي تعورني. لا تكسرهما.

كان يدرك مدى تعبها. وكان عنته التي تستعدها تقصد أن تقدّمها له آخر النهار ثمرة ذابلة حتى لا يها بها ونهاً به. وليس لها غير الليل. فيه يتأنّس ويمسحان عن بعضهما هيموم النهار. لم يكن قادراً على مواجهة عنته. أن يعترض عليها ويطلبها رفع الثقل عن حصّة. كان إحساسه بصنف أمام حصّة يصاعف خوفه من مواجهة العمة. ماذا لو صرخت في وجهه وصيّره بقصوره وعجزه؟ وقد يركبها الشيطان وتذكر أن تفصل حصّة عنه.

كان يجد في سكونه ذرةً للظلم عنه وعن حصّة. حتى أباه كان يسرق منه حصّة رغم تبعها طوال النهار لتنهّر له ساقيه، تقصي له طلباته، تنظف غرفته وتغسل ثيابه. لم يكن قادراً أن يقف في وجهه ويطلب أن يترك حصّة له. كان يتحاشى حتى النظر إلى عينيه وكأنه سيلمح فيهما ما يجرحه «أنت مو رتال».

لم تكن حصّة تلقى من الراحة إلا القليل. ولم يكن لها من حقّ للخروج إلا مرة في الشهر لثبور أهلها. تعود له متهلّمة، سعيدة وكأنها نسيّت في يوم عذابات شهر كامل. تعود إليه وسراً في صدرها. لا تتنّى به لأهلها. ولا تغشي سرّ البيت الذي تلقى فيه المهانة والتعب.

■

زلت ذلك السالم الطعل الذي رآته أحر مرة في حوش البيت وقد
تعفّر وجهه بالدموع وبالنراة.

• • •

حين وافق على قرار عمتّه بتزويجه. كبت في داخله شعور
عذبة. كان يتمنى لو أن أمه هي التي تقرر. وهي التي تختار وتحطّب
له. وهي التي تعدّ لفرجه وتعلو وعاريدها. فكيف سيترجّز وقلب
أمه بعيداً؟ أليس من حقها أن تعرف؟

لم يتردد بمفاتيحة أبيه وهما يتناولان الطعام:

- أمي لم تعرف بعد أنني سأترجّز.

رفع أبوه وجهها غاصاً بالحزن:

- المفروض أنك تخبرها.

تمتدّ العرج غلبه. شعر أن أباه المغلوب على أمره يقتر
مشاعره. يقف معه يشجّعه على البرّ بأخته. تشجّع:

- هل أذهب إليها اليوم؟

بارك أبوه خطوته:

- روح يا وليدي. روح. لكن!

التفت ناحية المطبخ. فهم أنه يقصد عمته. ويحشى منها.
طمأنه:

- لا داعي أن استأذن منها حتى لا تعطل الزواج.

• • •

يوم عرسى. دخلت أمي كالغريبة. تلاحظها عيون عمتي
اقتربت مني. كنت أسمع طبل قلبها وزغاريد. حضنتي وشوق

كانت تعرج بالقليل من زيارات أمها لها. لكن عمتّه استكثرت
عليها رشة العرج. تعذّدت أن تسيء معاملة الأم. والتقليل من شأن
هناكها الصغيرة لحصة. حتى كفت عن المجيء. واكتفت بزيارة
ابنتها لها.

بكت حصة يوم أخبرتها أمها أنها لن تزورها ثانية لكنها ابتلعت
فهرها، وحين أخذ يواسيها ويعتذر لها همست:

- عشايتك يا سالم أحتمل كل شيء.

- لكنها تحرمك من أمك.

أثقت عليه سؤاها المتردد:

- وأنت؟ ألم تحرمك من أمك؟

• • •

«آه يا أمي»

يا مصدر الخير الذي قطعته عمتي. تذكرتها وحصة تدكرني
بحرماني منها. كنت أسرق من الشهر نصف يوم لأذهب إليها. وأبي
يستر على دهاسي ويعرج لأجلي. حين تفتح لي الباب تخبرني
رائحة الأم. يتدفّق حانها في لحظة تنسني حرمان كل اللحظات.
تتلمّسنني. تشجّمنني. كأنها خالصة أن تكون عمتي قد سرقت من
أضلاحي. أو كسطلت عن ثري أثر حليها الصافي.

أفرح وأمي تبلّس بالحنان أرى إخوتي من زوجها الآخر.
أحسنهم. أفدّم لهم حلوى وقراطيس وألوان. تدفع عيناها. تشكرني.
وتعرج أمامي طعامها الشهوي. فأكل بنهم وكأني لم أدق الطعام منذ
أن فارقتها آخر مرة، وحين أودعها تشدّني إلى صدرها وكأني ما

الأم المحرومة بعمرى. سيئ وأنا أستم رائحتها رائحة البخور وماء
الورد قبّلتي بحرارة وكأنها تريد أن تؤصني عن تلك القيلة القديمة
التي لم تصل. ابتلعت دموعها. قدّمت لي مصحفاً:

- ضعه تحت رأسك. يحملك وزوجتك من الشرّ.

اكتشفتُ بعد ذلك أنها أهدت لحصة سلسلة ذهبية يتدلّى منها
مصحف وحررة ورقاء. داعبتها حصة بأصابعها وهي تخبرني:

- قالت لي أمك إن هذه ستحميتنا من العين والشرّ.

لم تكن حصة بعد تعلم ما هو الشرّ الذي قصدته أمي. لكنها
بعد معايشرة عمّتي عرفت. وجرت لكن الشر كله لم يزدها إلا
حباً لي. وصبراً على عجزى وتهويناً عليّ مصيبي:

- لا تفكر.. ستقدّر ذات يوم

أنحجل منها. أدفن رأسي. تذهب شعري:

- أقص لك قصة؟

- قصة شنو؟

- قصة الساحرة.

أنتظار بالرجفة:

- أحاف.

تعانيني

- تحاف من ساحرة غير حقيقية؟

أعاندها.

- بلى. موجودة. ها.

وأشير إلى باب الغرفة. معهم سن أقصد تصحك من صميم

قلبي حتى تلمع عيائها وتسكت فجأة خشية أن تتسرّب رئات
الصحكة إلى الساحرة. فتأني وتنفّس على سعادتنا.

* * *

هل كانا يعيشان السعادة حقاً؟ هل تكون السعادة حقيقة
مكتملة وهما يحامان حتى على الصحكة أن تصل آخر الليل إلى
سمع العمة؟.

هل يسعدان والعيون تلاحقهما بالأسئلة القاسية، تبحثان عن
السر الذي يزيلهما ولا يأتي إشارة الحمل؟ نظرات عمّة الشوكية.
ونظرات أبيه اللالمة. وسؤال أمه الحنون الصريح:

- متى أفرح بعيالك؟

ينقل السؤال لحصة. تعلّيه بالأمل. ترفض يأسه. تشجعه على
المحاولة، فيقرب وشرارات حسده ملتصقة. لكن انتفاؤها يأتي في
لحظة. يشعر وكأن سيماء حاداً يضرب ظهره. تغيم عيناه ويتشر
الظلام. تعيب عنه رائحة حصة المنعشة. تعوح رائحة دابة. ورذاذ
الهرّ. وصرخة عمته.

كان يأخذ هدبة من المحاولات الفاشلة. يهرب من وجع حصة
التي تؤاسيه. ترقد بجانيه أليفة كدانة. وحين تعيب في النوم يتفقد
يخاف عليها. يلتصق بها متصوراً أن يدأ قاسية ستمتد وتصلهما.
الذليالي تمر...

تحسّس في تلك الليلة مكان حصة في الفراش لم يجدها.
انتفض. نادها باسمها هامساً. لم ترد. عرّب الخوف في قلبه. تذكّر
غياب دابة تلك الليلة الشتائية. فتح الباب لفحة السمّة الباردة.

والذكرى الموجهة. سار يهمس باسمها. مرتين، ثلاث. لمحها آتية.
شدَّ على فروعها التهزِيل:

- أين كنت؟

هست:

- في بيت الخلاء.

لطمه شعور غريب. تلفَّت باحثاً عن ظلِّ هرٍّ، مارفٍ أو قمر
يزور العذارى في الليالي الباردة. لم يلمح أثراً لشيء. لم يسمع
حتى وثَّه جناح لطائر ليلي ناته.

سار بها إلى الغرفة. قُرب السراج من وجهها. كان متورداً
لمسه فإذا به دافئاً. قاض طوفان داخل رأسه. لماذا هي متوردة
ودافئة رغم البرد؟

التصقَّ بها. أحسَّ رطوبة جسدِها. ثار اشتهاؤه. فكَّر بالمحاولة.
لكنه تراجع خوفاً من فشله. خمد بركانه. واشتعل شكُّ غريب.

ما سرُّ حصة؟

هل صارت مثل دانة تبحث عن دله غير دته؟ عن هرٍّ يسرَّب

إليها الشوة؟

أفزعها الخاطر.

أنفاسها تصله مسرعة، يطلق سؤاله:

- نمب؟

- لا

- تعبانة؟

- لا. بس يمكن «استردت» من الحوش.

دنا منها. حقنتها. دأب شعرها المتناثر ورموشها لتنام. لكن
النوم جاغافا كما جاغاف. كان يحسَّ خفقان صدرها. ارتدادات
أصابعها.

- ما بلي؟

نظرت إليه. فاح عتاب سؤالها:

- ليش دورت علي؟

- خفت عليك. أول مرة تخرجين وحدك.

تلَوَّن صوتها بالعصب.

- وضروري كل مرة تروح معاي؟

ذكرها:

- اتفقنا على هذا.

- أنا مو «قطوة» تخاف علي.

شعر بعجزه. صورة دانة تموج في سواد عينيه. حصة تهيم
شاعره، وحوفه أن تفارقه كما فارقت دانة.

هست له:

- لا تخف ما بفرقنا شيء.

ارتاحت كفَّه على صدرها. أعمت. ربما على حلم جميل، أو

أمل جديد. بيتما أعفى وفي عينيه صورة للحب يفترس حصة.

• • •

يتكرَّر خوفه.

أرقَّ ليلي يدق أبوابه كل ليلة مخاوف تشعب في رأسه وتنبت

شكوكاً، كلما تكرَّر غياب حصة عن الفراش. أحسَّها تتغير. تنفر من

اقتربه. من راحته التي صرحت له بأنها مزعجة تشبهاً حين يقرب منها باحثاً عن مستفة لغوها. صارت ترفض محاولاته ونسرحمه ألاً يكررها. أين حصة التي كانت تتلوق بين يديه. تذوب ومطره يرشها. تحب راحته تتلوق الطعام وتنام برعشتها غير المكتملة؟ لماذا صارت تنحب؟ تنلمز؟ وتلبل؟

صار يستعيد تلك الليلة التي خرجت وحدها وعادت دافئة. صار يشراي له خيال هر آخر. هل كرهت حصة هرّها الصغير؟ عاندها واستمر في محاولاته رغم العسل، ورفضها، ونفورها. وكانت من يأسها تستسلم له. تركه يتوسدها ويرشها. في تلك الليلة. تركها مستلقية على ظهرها. أحد يتأمل جسدها الباعم. سار بكفه يناعب اللؤلؤ، والرمال. كفه التي ترحل فوق الجسد توقفت فجأة حين اصطدمت بمرفق صغير تحت سرّتها. استغرب، سألها:

- شو هذا؟

انتظر وقد أفنت بالبكاء قبل أن تجيب:

- ما أدري يا سالم. أنا تعاتة.

أشفق عليها:

- آخذك باكر للطيبة.

دفنت رأسها في جيب صدره:

- خلني لامي.

مسح على رأسها. عادت كفه تحط على التلة الصغيرة:

- ولكن. هذا؟

واصلت بكاءها ورقها أشبه بالصراخ:

- ما أعرف. ما أعرف. لا تسألني.

تركها مصطخباً رأسه بألف سؤال، وحيرة، وخوف. همس قبل أن يستدير:

- يمكن أمك تعرف.

• • •

حصة حامل.

هل تبت الأرض العطشى زهرة؟ من ذا تراه سقاها؟ كيف حدث هذا وفأسه لم تفلح الأرض بعد؟ هل غزا أرضه هر آخر؟ كيف لم تفصله عنها يد؟ كيف؟ متى؟ وأين؟

لم يكن يوجه لها أي سؤال. لكنّها تحسّ بما يعانيه. لا تتحاشاه. تنمّس لو يفتح قلبه وقفه. ينطق بأي شيء. يفعل أي شيء. ليرتاح. لكنه ظلّ على صمته. يتعذب ويعذبها. والشجرة تكبر ..

مثلها يكبر الهم وهو يلحمها تنمو في أرضه. لا يشعر بسماعة المزارع التي يشعرها بعد الحرت والري لا يجرؤ أن يسأل عن غريمه. كان حين يلامس جسدها وتتدحرج كفه حتى تصل إلى بطنها. يهمس في سرّه «هنا يرقد ابن شريكى». وتطلّ يده تهدد البيت. تكتم سرّه. والفهر مكتوم في صدره. يأكل من عافيه وعافية حصة. لاحظ أبوه نحوله، وسهومه. سألها:

- ما بك يا وليدى؟

قلعه بالخبر دون مقدمات:

- حصة حامل.

تهلّل وجه أبيه. عانقه بفرح بارك له. وغادر إلى غرفته سعيداً، طائراً لماذا يصرح أبوه؟ هذا المرح يصلده، يفرغه، يثير شكاً غريباً. هل يتحمّل الهمّ وحده؟ هل يتلعّ الشوك ويصمت؟؟ ولماذا يشكّ بهرة الجيران وفي بيتهم مرّ آخر؟؟

في الليل اتحمم غرفة أبيه:

- يئّ شلون هذا صار؟

بهت أبوه

- شنو اللي صار؟

- حمل حصة؟

أطلق أبوه ضحكة. أشار إليه:

- مو أنت زوجها؟

دون تردّد ألقي باعتراه:

- أنا ما دخلت من ليلة الزواج حتى اليوم.

انتصب أبوه واقفاً قاربه. شدّ صدر دشداشته حتى كاد يخنقه

بها. حوى صوته بالعصب:

- شتقول؟ وشلون حملت؟

- أنا اللي أسألك.

زمر أبوه

- وشلون أحرف إذا أنت ما تعرف؟

احتدّ صوته:

- ما في باليت إلا أنا وأنت؟

لم يتحمل أبوه التهمة رفع كتمه وهوى بالصفعة الحارقة على صدغه:

- «يا كلب»! شوف هالماجرة من وين جابت «هالكفل»⁽¹⁾

- حصة مو فاجرة.

- فاجرة ونص، اسمع. اقطع السُرّ قبل ما يكبر. اقلها.

انصص

- ما أقلها.

- إذن طلقها.

تحدّى أباه:

- ما أقلها، ولا أطلقها

انطلق خارجاً. وصفق الباب وراءه.

• • •

يُطلقها؟؟

كيف يطلق سعادته؟ حصة التي عزّسته حنان الأم، وفقدان

دانة. حصة التي لوت لباليه بالحب وأصابت ظلمات روحه. كيف

يطلقها؟

يقتلها؟؟

كيف يقتل روحه؟ ويقطع شريان حياته؟ هل يقتلها ليربحها

من عذابها أم ليرتاح هو من عذابه. أو ليربح أباه.

تفاقم عليه الشعور بالعجز. أحسّه دبابيس تنغرز في جسده.

شعر وكأن حصة قد صارت شوكة بعد أن كانت زهرة عمره. وقد

(1) الكفل: اللقيط

ارتضاها زهرة فهل يرفضها شوكة؟

هل يؤذيها وهي التي لم تؤذ مشاعره يوماً؟

وهذا الشك القاهر؟ كيف يسكته؟ كيف يرتح منه؟ هل يسأل
حصّة؟ لم يجز، كان يخشى أن تؤكد له الشك فيؤذيها ويؤذي
البقرة الرافدة في أحشائها.

فصاح أبوه سرّاً لعمته، فصار عليه أن يحمي حصّة من الأتياب
المرتصّة، وصوت عمتّه الذي لاحقه:

- طلقها.

- أحبّها، ما أطلقها.

- أبوك طلق أمك. المفروض تطلقها.

- مثل ما قتلتي دانة

- هذي فاسقة.

شحن صوته بالحقد. قدّمه في وجهها:

- لا أحد كثرك فاسق ببيتك.

صرخت في وجهه:

- ما تخجل من نفسك؟ طلعت لك أخافرك؟.

- وستطورك.

تركها مقجوعة بتهديده.

لم ترحمه عمتّه. لم يرحمه أبوه. من أين تأتي الرحمة؟
وتحريضه على قتل حصّة يطارد:

- اللي في بطنها شيطان.

أصرّ أن يعاود لأبيه الاتهام:

- الشيطان في بيتا.

إن لم يكن أبي. فمن يكون؟ لا أحد يدخل بيتا. حصّة لا
تعدده إلا ليت أمها. آخذها بنفسه. وأعود بها في المساء راهية
بفرح اللقاء بأهلها.

كيف حطّت البقرة في أحشائها إنذا؟ كيف لا أشك بأبي
الذي كان يتزوّجها من بين يديّ في كثير من الليالي لتهمّزه. وتليّ
طلقاته!!

كان شغبي بأبي يعذبني. حين تهدأ نفسي كنت أنساها: هل
يُعتقل أن يكون هو؟.

أبي الذي عاش الظلم كما أعاني. صير كما أصير. فقد زوجته
كما فقدت أمي ودانة. أبي الذي لم يحقق لنفسه السعادة والاستقرار
هل يسرق هناءة ولده؟ أحاول أن أزيّ أبي. لكن الشك يتصعر. إن
لم يكن هو. فمن يكون؟.

انقضت الراحة. تلوّعت. فارقني النوم. ابتعدت عن حصّة.
رفضت أن تتلق أمامي بكلمة. كلما حاولت أغرستها بنظرة حارقة.
لكن قلبي لم يكن بطاعني، حين تبكي وتتسلّل إليّ شهقاتها. أدنو
منها أرئت على كتفها. تجف الكلمات في حلقها. لا أنطق لها
إلا: اصبري.

لم أكرهها. لم أحقد عليها. ابتعد عنها. ثم أعود إليها. أشتبهها.
أنتجاهل مرتفعها الذي يحتوي الثمرة. أحضنها... أجرب الدحولة...
وفي لحظة تنقاز إليّ الطون والصور فأتهوى متلعناً هلامي ونقمتي

على الكون كله. على عبثي. أسي على نفسي... وعلى حصة
مصدر الحب. ومصدر العذاب الذي غير حياتي؟.

* * *

تغيرت الحياة في البيت. نشط عداه بينه وبين أبيه تبعداً.
لم يعد يجالسه وقت الطعام ولا يرافقه إلى عمله. وإن تلاقيا في
الحوش. يمر تحريض أبيه نظرات حارقة أو كلمات قاسية وجارحة.
ينشب العراك، يرتفع الصراخ. وتكرر الهوة.

عبثه هي الأخرى تتحاشى مجرد النظر إلى وجهه. لا تحرو
أن تكلم حصة أو تأمرها وتكلفها بأعمال البيت مند أن حذرهما
وصرخ في وجهها مهدداً:

- لو صابقت حصة. سأقتلك.

تحاشته عبثه. تجاهلت وجود حصة. أسعده ضعفها أمامه.
لم تعد تجرؤ إصدار الأوامر له. ولا تكليف حصة في أعمال
البيت المعهقة. وإن حصرح إلى الحوش تفر من وجهه كمن يمر
من عاصفة.

شمر بالقوة والانتصار. أخيراً استطاع أن يقلّم أطراف عبثه
التي أكلت من لحم طفولته؛ أن يكرس بأسها كما كسرت قلبه يوم
أنعدت أمه ودانة من البيت. أن يذلها كما أذلّت حصّة وأرهقتها
واستليت راحتها.

لكن حصة لم تكن مرتاحة. لم تسعدها قوته التي نالت من
حريتها. ضاقت بالغرفة وحلدها رجة أكثر من مرة أن يهدأ،
أن يثير طباعه. أن يرحم أبياه، ولا يرفع صوته عليه؛ أن يمتنع

عبثه من كراهيته وانتقامه؛ أن يرحمها هي من خوفه. لكنه كان
الستجان الخائف على مسجته. يدافع عنها. يحميها من شرّ قادم
يتصوّره.

في الليل سمع شجيجها. اقترب منها مستسجراً، قلقاً. هفت
بحزن فثت قلبه:

- إن كان يرحمهم ويربّحك الخلاص مني. اقتلني.

التصق بها. مسح دموعه الساحن. رأى البراءة معروشة على
وجهها. هل يصدّق أن حصة خائنة؟ هل يصدّق أنها تهذي جسدها
لغيره؟ إذن لماذا تطالبه أن يقتلها ويرتاح؟ يكاد يطر السؤل من
لسانه:

- من يا حصة؟

لكنه يتلمع كالجمرة لا يريد أن يعلّنها؛ أن يواجهها بشكّه.
لكن العراك يداخله بهشه. لم تستطع فرحته بانتصاره على عبثه
أن تطفى النار في صدره. كان لا بدّ أن يحمّد البار. يرتاح وراحته
لن يحقّقها له أحد غير حصة التي يجب أن تكشف له السرّ.

خرج من البيت، هام على وجهه نهراً كاملاً. عاد مرهقاً،
متعباً. وقد قرّر أن يخلع رداء صمته.

دخل عليها. كانت متكومة على نفسها كما كانت تفعل دابة.
حس شعرت به رفعت رأسها. أراحت شعرها الذي تبعثر على
وجهها. لمح الوجه باكياً. أدرك كم هي تتألم. تحتاج لمن يداوي
جروحها ويمسح على نفسها الكسيرة. جلس بقرعها:

- ليش تبيكين؟

بصوت ملوّح:

- أنا أنبتك يا سالم. حتى أبوك تأذي مني.

كانت فرصته ليدخل من الباب الذي فتحته.

- أبوي يستاهل. عليه يتأذي.

- وليش يا سالم. شنو فنيه؟

اعتناظ. داهمه شعور أنها تدافع عنه، وأنها بهذا الدفاع تكاد

تؤكد شكوكه أراد في لحظة أن - يزوغ - ما اختبر في ذهنه من

العذاب. واجهها بمض:

- مو هو صاحب القعلة؟

أشار إلى بطنها.

ارتعدت... اصفرّت. أثسعت عيناها حتى شعرت أنهما

ستخرجان من محجرهما، انفجرت من داخلها آهات، وارتجافات،

لم يرحمها الخ:

- هو أبي.

هزّت رأسها نافية، هزّت لم تستقر حتى شدّ على رأسها.

فأصغرت كلماتها:

- لا تكن ظالم يا سالم.

- أبوي اللي ظلمني. وهذا ما فعل.

لم يشر إلى بطنها. وجد كنهه تتكور وتحط على المرتفع

بلا حذر. دفعت يده. حرسث ثمرتها. فاح غضبها ممزوجاً

بدموعها:

- أنت مجنون مو صاحي. أبوك ما لمستي.

كان اعترافها ببراءة أبيه سهماً حارقاً. ينعزز في قلبه، في

خاصرته، أشعله. حبّاً واقفاً، شدّها إليه، صرخ في وجهها وكفاه

الصاعقتان على ذراعيها تهزّانها بلا رحمة!

- إذا مو أبوي. قولني. من؟... من؟...

- ما حدّ. ما أدري شلون... والله ما أدري..

صفها... دفعها إلى الأرض كان السهم قد قصف البقية الباقية

من هدوته. تلبّسه جون شيطان أصمى. أخذ يرفسها بقدمه وتتهال

كفه على رأسها، على وجهها، على كل مكان تقع عليه. صوت

الصريرات وصراخه يتخالطان: شنّ الماعل؟ قولني أو تقتلك؟ من؟

من؟

وقع، وقد تراكم الزبد حول شفتيه لهاث صدره يسى عن

مدى تبعه. انفجر باكياً. سبّت غداياتها، ألها المضاعف، اقتربت

إليه، حضنت جسده، لم يرفسها رغم غضبه وجحيمه الذي سقط

فيه. كان محتاجاً لمن يهدده ويحو عليه. مسحت على رأسه،

صبّت حنانها في آذنيه:

- ليش تؤذي روحك بهالصراح؟

استدار إليها. أسقط رأسه بين ركبتيها ويكاؤه لا يتوقف:

- أنا أتعذب يا حصة

همست:

- وأنا أتعذب مرّتين. مرّة علشانك ومرّة علشانني.

توشل إليها:

- يا حصة. الله يخليك. قولني الحقيقة. من فعل بك هذا؟

- والله. والله يا سالم. لم يلمسني أحد. أنا ما أدري كيف هذا حصل.

وشدّت عليه. أكدت له:

- أما أحبك يا سالم.. شلون تشكّ فيني؟

سمعا طوقاً على الباب.

صوت عتّه مستضراً:

- سالم.. حصّة.

تأخّبت حصّة لتفتح. شلّها وأمرها:

- لا تفتحي لها

- يمكن تحتاج شيء.

- اتركيها. خليها تدلع بشرّها.

انتظر حتى سمعا صوت أقدامها تتبعد. كان قد هدأ.. ظلّت حصّة تحفضه، تُهديه قبلاها وترجوه:

- يا سالم. غلّ عنك هالوساوس. تعوّد من الشيطان. ولا تظلم أباك.

- أبوي كل يوم يطالبني أن أطلقك. أو أقتلك. كرهته.

- لا تقول هالكلام. الظفر ما يطلع من اللحم.

استكان في حصنها استسلم لهددتها. ودّ أن يرتاح أكثر، يهدوء سألها:

- «صبح» يا حصّة. أبوي بريء؟ وما حدّ غيره...؟

قاطعت. حلفت:

- وراس أمي وأبي. وراسك الغالي.

لكن حيرته دفعته:

- لكن شلون؟ شلون؟

تهدّت:

- أنا مثلك محتارة. الله اللي يعلم.

فرغم حيرتي التي ظلت تسكنني. إلا أن كلام حصّة. وتأكيدها براءتها وبراءة أبي صبّت على قلبي ثلجها. بدأت أهدأ. حققت من حدّتي مع عتّي، وأبي. وحققت عمتي حدّتها مع حصّة التي أصرّت أن تخرج من سجنها. وتعاود حياتها الطبيعية في البيت. كنت أخاف عليها من الأعمال المرفقة التي كانت تلقى بها عمتي عليها. لكن حصّة طمأننتي. أكدت أن عمتي لم تعد تأمرها. تركتها تقوم وحدها بالعمل الذي تختاره. فرحت. وثقّلت أن شرّ عمتي كان بحاجة لشيء يقابله حتى يخف استبدادها. وكان لمعول غضبي نتاجه الطيبة.

صمتت عتّي.

صمت أبي.

لم يعد يصيّد لي أبرسي بتطلق حصّة أو قتلها حتى في السكّان كان يتحاشى الكلام معي. يتلهى بالحديث مع أصدقائه أو المازة. وأتلّهي بالكتب والقراءة. وندراً ما تبادل الحديث الذي يخصّ العمل أو حسابات النهار. وفي البيت لم يعد يطلب من حصّة أن توافيه لفرقة لتهنّره وتقضي طلباته كما كان يفعل.

هذا الصمت رغم أنه أراحني من نوبات العصب والصرّاح. إلا أنه أثار قلتي. هل كان أبي يحتفظ بغليانه بانتظار لحظة يلعن

بغارها ويعيق المكان ظلاماً؟

لم أحب عن حصة مخاوفي التي تفرسني وتهاجمني شرارتها.
وكوايس الليل لا ترحمني. أهرب من البيت. من تعبي إلى البحر.
أغسل فيه أغسل روحي، أنتصّر أسى خلعت كل أثواب همومي
هناك. وما أن أدخل البيت حتى تعود تلتصبي الأفكار والتصورات
المخيفة. والتساؤل: «ما سر صمت أبي وعمتي؟ ماذا يدبران؟ هل
يتآمran عليّ أم على حصة؟»

قررت أمراً لأحسم متاعبي. ترددت حصة في قبوله أول الأمر
ثم شجعتني عليه.

* * *

فكّ حصار نفسه. دخل غرفة أبيه أشاح عنه. لم يأبه. جلس
ليس قريباً وألقى بقراه:

- سأخذ حصة ونترك البيت

فوجه الأب التفت إليه حائفاً:

- وين تمام. في الشارع؟ أو بيت أمك اللي مثل المجر؟

أجاب واثقاً:

- سأكتري حتى لو غرفة. الدنيا كبيرة.

بفض أبوه كنه في وجهه ثم دق على صدره:

- والله ما هي أكبر من النار اللي في قلبي.

حاول يهدئه:

- يا «يئة» لا تخلي النار تأكل صدرك.

هرى:

- النار إن شاء الله ستأكلها.

- سأحبها منك. ومن عمتي.

- وين ما رحت. سأطولها.

- تهذني؟!

- وأندرك. إن ما غسلت العار. أصله أنا.

فزع... غادر المكان وكان النار تلاحقه اشتعل الدوي في
رأسه. تأكد أنه محق في مخاوفه، وأن الخطر يحيق بحصة. اندفع
إليها. صارحها بالتهديد الذي سمعه ارتجفت. لكنها تحاملت على
نفسها حاولت أن تبعد عنه الظنون السوداء وتريح نفسه:

- أبوك مختاظ منك. لكن الأب ما يؤذي عياله.

بدانها تقاذفت الهواجس.

بدانها ثارت البراكين.

يغفو في الليل. يحس جسده يسقط في بحر أحمر. يرفعه الموج
عالياً ثم يطبع به. يرتطم رأسه. يصرخ. يصرخ. يستيق وحصة تثبت
جسده بلزاعها والزّرع يطلّ من عينيها. لاهتاً يستفسرها:

- شتو صار؟

- يمكن كنت تحلم.

- بحر يا حصة، بحر من دم وأنا «أنتطوطع» فيه.

تهرع له بكوب الماء. تُسَمّي عليه، تهدئ أنفاسه المضطربة،
يحسنها:

- لا تركيني. التصفي بي

* * *

«التصقتُ بالبيت هجرت الشارع، ودُكَّان أبي، والمكتبة،
والقراعات. صرت مثل صرصار يدفن نفسه في الشق، وإن خرجت
إلى الحوش تظل عيناى لا تفارقان باب عرقي تحرمه تنأقب لصد
أي هجوم أو خطر. وفي الليل أعلق على نفسي وحصة المفتاح.
وأراكم حلف الباب بعض الأغراض. فإن كان لدى عمتي أو أبي
مفتاح آخر، فإن الحركة ستوقظني من الغفوة والمغلة. مرَّات عدة
حين يستبد الخوف بي أقبع خلف الباب أتلفص من ثقب المفتاح
باحثاً عن ظلٍ لعدوِّنا المترصص بحياة حصة.

كنت توَسِّل إليَّ أن أهدأ. أطرد الوساسوس. أنام. وأسترد
عافيتي. في المرات التي أطيعها فيها وأعفو يحاصرني بحر الدم
أهب مفروعاً صارخاً. تهتز أركان الغرفة، ثم أسقط متلاشياً.

استلب العياء صحتي. فقدت شهيتي لكل شيء حتى وجه
حصة وجسدها. لم أعد ألامسه. أصابني صداع شديد صاحبه
حالات من الإسهال والغثاس. وفي بيت الحلاء تقفز لي صورة
دانة في لحظتها الأخيرة، مواظها المتوسل، أبكي. أنمق، أفرع
متاعبي وأحرق من المكان يسبقني صراخي. تفرع عيون البيت
ألمح غيالات الوجوه، أبي، عمتي وحين أيق، أفتح جفني على
وجه حصة الدامع. أجثني غارقاً بعربي، ويولي، ويرد معي. أسمع
صوت أبي يخترقني من الدريشة:

- الولد جن.

توَسِّل إليَّ حصة:

- لازم تروح للطبيب.

- أنا مو مجنون.

- أنت مريض. وأنا خايفة عليك.

أحبط وجهها بكفي، أنتحسه، أُنحدر إلى عتها الذي تتدلى
منه خزة أُمي الزرقاء، أُلتمسه بلطفه. أُنثر خوفي:

- سيقتلونك يا حصة.

- أنت تتوهم. لا أحد يتوي هذا.

أتركها لا تقوى أن تمسك بي أنفلت إلى الحوش. أصرخ
ملء صوتي، أشتد عمتي وأبي. لتتابني حالة هياج لا أستطيع منها
إلا وأنا مطروح على الأرض شبه ميت. ليس أمامي إلا وجه حصة.
تنبُل جفاف خلقي بالماء وتحتويني بجانها الأسر تبكي. أبكي
معا. أشدها إليَّ وأقسم لها:

- سأحميك. لن تموتي... ستعيشين...».

• • •

كرَّر بصوت لاهث وكأنه كان يقطع مسافات عميقة في
غيبوته:

- ستعيشين يا حصة. تعيشين... تع...

فتح عينيه. لم يكن وجه حصة بانتظاره، صافحه وجه الطيب
نظرة حنون. صوت رقيق:

- وأنت ستعيش يا سالم.

خفض رأسه. أدرك أنه تاه في غيبوة. كَفَّ الطيب التي كانت
تقيس نبهه. أجدت ترتب على كفه وهو يشج بالكلمات:

- لكنها ما عاشت.

- أنت ما قصرت، حاولت أن تحميها.

أدهشه ردة الطيب:

- كيف عرفت؟

- كنت تحكي كل شيء، ظلمت تحرسها كل الوقت، كيف إذن ماتت؟

صقط على رأسه:

- أحاول أن أتذكر... فلا أذكر شيئاً.

- قلت إنك طلعت الحوش، أحذت الحبل، طوّحت به في وجه عمك، وأبيك، كان الحبل يبك يا سالم.

اعترف بهدوء:

- صح، لكسي كنت أخوف به عمتي وأبي، لم أقتل به

حصة

- من إذن الذي فعلها؟

- عمتي... ماكو ميرها

دار الطيب حول مسيره، تأمله حتى ارتاحت أنفاسه، اقترب من رأسه، مسح عليه:

- يا سالم، كنت أنت وحصة وحدكما في البيت، أبوك وعمك دخلوا وكنت بقرها والحبل في عتها.

- لا... لا... لا...

خرجت الممرحات كالذهب، أخذ يماغر في السرير، يلوّح بذراعيه، تصدم يدها إيريق المساء ووجه الطيب، كان صراحه قد

جذب حركة الممرحات والشرطي الذي يحرس الغرفة، انتعرت

أيرة في ذراعه، قال الطيب وهو يعطي جسده الذي ترائى:

- سيرتاح الآن

يسري إليه المَلَكُ... يميح، لا يحس بأيّ خيوط تشبّه إلى الحياة، إلى كل من حوله، إلى الذين يريدون أن ينشوا ذاكرته وكأنها - قبر حصة - أو - قبر دانة -.

تطول غيوت، الأحداث والصور كلها تتجمع، تحضر، يلمح وجه دانة، حبله الذي تدلّى إليها يتصوّرها وقد قمرت إليه، يسمع الأوساخ من وجهه، ينفخ في ثغرها من أنفاسه فتتجدد فيها الحياة يضتمها إلى صدره، يحسّ ذقات قلبه ترقص ويلمح وجه حصة مرروعاً بالانقسامات، يشروياحبه على وجهه، وجسده، تتبعث ليااليهما الجميلة، يسرّب إليه الفرح، تفاجئه الضحكات لكنها ما تلبث حتى تمادره، إذ ينتصب وجه دانة في لحظته الأخيرة وفزعه الذي لا ينساه، ووجه حصة، عيناها الرائعتان الشاردتان، وترتعي داخل هيبه شرارات من العتاب:

- لماذا تركتني الليلة يا سالم؟؟

هو نفسه لا يريد أن يصدق أنه تركها: كيف غراه أمن كاذب فأسلمها إلى الموت؟.

في تلك الليلة غادر أبوه وحمته البيت، دارت في رأسه الظنون، كادت تنوّقه وتلقفه لولا أن فرحه انتصر على الظن، هي المرأة الأولى التي يغيبان فيها، يتركانه وحصة وحيدين، شعر أنه يملك أثبت كله، خرجا إلى الحوش يتراكصان... يسابقان... والليل دافئ

كحُضْنِ أُمِّهِ. القمر يَخْتَالُ في السَّمَاءِ وَيَعَثُرُ فُضَّتَهُ فِي الْأَنْحَاءِ. هَرَعَ إِلَى غُرْفَتِهِ. حَمَلَ فَرَّاشَهُ وَالْوَسَادَ يَسْعُطُهَا فِي قَلْبِ الْحَوْشِ. اسْتَلْقَى سَعِيدًا. نَادَاهَا وَهُوَ يَفْرِدُ لَهَا خُرَافِيهَ:

- تَعَالَى...

انْطَرَحَتْ بِجَانِبِهِ كَقِطْعَةٍ وَجَسَدَاهُمَا مَذْيَابَانِ بِمَرْقِ الرُّكُصِ، وَالْمَرْحِ. ثَمَّةَ خَيَالَاتٍ تَسْرَاهِي لِهَمَّاهَا مَسَافِقُ السُّورِ وَتَتَرَلَّقُ إِلَى الْأَرْضِ تَذْكُرُ دَائِمَةً حِينَ تَتَمَشَّى. ثُمَّ تَقْلِفُ نَفْسَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ. حَصَّةُ الْآنِ دَائِمَةً التَّصَبُّقُ بِهَا. كَقَمَّهَا الرُّطْبَةُ انْدَمَسَتْ فِي كَفِّهِ. رَأْسُهَا فَوْقَ صَدْرِهِ وَشَعْرُهَا يَبْعَثُ كَالْحَرِيرِ. فَاحِ عَطْرِ الْحَنَاءِ مِنْهُ فَاحَتْ رَائِحَةُ الْأَنْثَى. دَسَّ أَصَابِعَهُ فِي صَدْرِهَا الَّذِي امْتَلَأَ وَتَلَوَّنَتْ هَالَتُهُ بِالسَّمَرَةِ. ضَعَطَتْ تَأَوَّهَتْ. انْجَحَرَتْ كَفَّهُ لَامَسَتْ التَّلَّةَ الْمَرْصُوعَةَ. «أَمِنْ الشَّرِيكِ. رَابِضٌ مَسْتَرِيحٌ؟ شَعَرَ أَنَّهُ يَجِبُهُ. يَرْضَى بِهِ اللَّيْلَةُ هُوَ سَعِيدٌ وَلَوْ يَسْمَحُ لَشَيْءٍ أَنْ يَفْقَأَ دِمَاحِلَ الْجَرَحِ. هُوَ يَحْتَضِ حَصَّةً يَحِبُّ ثَمَرَتَهَا، حَزَنُهَا، وَجْهَهَا الَّذِي سَطَعَ أَمَامَهُ قَمْرًا آخَرَ قَرِيبًا وَحَرِيًّا.

أَهَانَتُهَا تَحْرُكُ سَوَاكِنَهُ. قَلَاتُهَا الْحَارَةُ تَشْعَلُهُ، رَانَحَتُهَا تَبْعَثُ الْقُوَّةَ فِي جَسَدِهِ، حَصَّةُ بَيْنَ يَدَيْهِ رَمَانَةٌ شَهِيَّةٌ تُثِيرُ بِرَاكِتِهِ الصَّمَاتَةَ، هِيَ دَائِمَتُهُ، هُوَ الْهَرُّ الْقَوِيُّ الْمَشْتَاقُ.

كُلَّ عَذَابَاتِ الْمَاضِي تَقَادِرُ فِي لِحْفَةٍ. طَبُولُ عَرَمٍ تَذُقُ. وَغَارِيْدُ أُمِّهِ وَالنِّسَاءِ، وَوَجْهَ حَصَّةٍ فِي يَوْمِ عَرَسِهَا يَتَأَلَّقُ. يَلْتَوِي بِالْجَسَدِ مَحْمُومًا. يَمْتَلِي أَسْوَارَ الْقَلْعَةِ فَارَسًا. ... يَفْتَحِمُ الْبَابَ. يَحْتَرِقُ الدَّعْلِيزُ الْمَحْضُنُّ. فَتَسِيلُ الْعُدْرَانُ بِلَوْنِ الْبُرْدِ. وَحَصَّةُ تَكْتُمُ صَرَحَتَهَا تَشْدُ عَلَيْهِ تَبْكِي. تَعْرِحُ .. تَتَأَوَّهُ ... وَتَرْتَاحُ. يَرْتَاحُ بِجَانِبِهَا عَصْفُورَانِ حَلَقَا فِي مَسَامَاتِ النَّشْوَةِ. وَانْسَدَلَا إِلَى الْأَرْضِ. الْجَنَّةُ

فَتَحَتْ لِهَمَّاهُ الْأَبْوَابَ وَأَكَلَا مِنْ ثَمَرِهَا الشَّهِي. صَارَتْ حَصَّةٌ لَهُ صَارَ فَارَسُهَا الشَّجَاعُ. فَاتَحَ الْقَلْعَةَ الْعُدْرَاءُ كَيْفَ؟ وَهَذَا النَّيْتُ!!
لا... لا يَرِيدُ لَشَيْءٍ أَنْ يَمْتَكِرَ عَلَيْهِ لَعْنَةُ الْإِنْتِصَارِ. بَعْدَ ذَلِكَ الْفُضْرُ الشَّالِكُ وَالْإِنْتِصَارُ الْمَرَّ.

كُلَّ الْمَرَارَاتِ تَزْجَحُ بِعَبْدًا عَنْهُ. سَكَنَ الْحَلَوُ كُلَّ أَعْضَائِهِ. يَدْخُدُهُ غُرُورٌ كَبِيرٌ حِينَ يَكْتَشِفُ أَنَّ لَا أَحَدَ غَيْرَهُ وَلَجَ بِأَبِ جَنَّتِهِ وَلَا مَسِيحَ فِي نَهْرِهِ، وَلَا تَدْوَقُ فَالْكَهْنَةُ.

هِيَ لِيْلَتُهُمَا الْأُولَى، لَيْلَةُ الْعَرَمِ الَّتِي حَلَمَا بِهَا وَانْتَظَرَاهَا بِشَوْقٍ. تَمَتَّى لَوْ كَانَتْ كُلُّ الْعَيُونِ شَاهِدَةً عَلَى النَّصْرِ، عَيْنُ أُمِّهِ لِنَابِرِكِهِمَا؛ وَعَيْنُ عَمَّتِهِ لِنَحْتَقِ بِعَيْرَتِهَا وَتَلَفَ حَوْلَ عَقْبِهَا حَبَالُ الْغَيْظِ تَفْتُمُوتُ

صَوْتُ حَصَّةِ الدَّفَافِخِ يَتَمَاجُ فِي الْهَوَاءِ يَسْرِي إِلَى سَمْعِهِ:

- سَالِمُ.

- يَا هَيْنَ سَالِمُ. يَا رُوحَ سَالِمِ.

- أَنَا جَوْهَانَةُ.

هِيَ لِحْفَةُ الْحُبِّ الَّتِي تَمْتَصُّ فِيهَا عُرُوقُ الْجَسَدِ كُلِّ مَحْزُونِ الْجَوْفِ حَيْثُ تَشْبَعُ الرُّوحُ وَيَمْتَلِئُ الْقَلْبُ، تَتَلَوَّفُ الْمَعْلَةَ لِقَطْرَةِ عَصِيرٍ، لُقْمَةَ خَبْزٍ. يَمْلَعُهَا تَحْتَلِّتُ النَّعِيمَ، تَمُتُو فِي بَحَارِ الْأَحْلَامِ.

الْتَمَعَتْ إِلَيْهَا. قَرَصَ وَجْهَتِهَا الْمَتَوَدَّةُ

· اللَّيْلَةُ. لَيْلَةُ حَرَمِنَا. مَا لَارِمَ نَآكُلُ مِنْ سُمِّ هَالِيَتِ.

- وَشَوْ نَآكُلُ؟

- أَرُوحُ أَجِيبُ مِنَ السُّوْقِ. هَا. قَوْلِي. مَاذَا نَشْتَهِيْنَ؟ كِبَابُ

وبصل وخبز تنور حار؟.

انتنفتحت:

- لا، لا تخلفني بروحي.

- ما أتأخر... لازم تشبعين الليلة.

انسَلْ من بين يديها. لم يكن انسلالاً سهلاً كانت ذراعها تشدّاته كلما ابتعد. تُلصق جسدها به أكثر، تقبّله. تفوح من نغرها رائحة المغوف. تتوسّله أن يبقى. تؤكّد له:

- خلاص راح الجوع. لا أريد كبأباً ولا بصلاً ولا خبز تنور ولا... لا تتركني.

لكنه انقلبت من بين الذراعين الرطبتين. تركها قطعة مبلّلة بالشوق، ذائبة تحت شعاع القمر وصوتها المرتجف يأتيه وهو يسوّي غترته وعقاله فوق رأسه.

- سالم. لا تأخر. الله يخليك.

خرج وصوتها يترجح في مسامعه صقاً بالنشوة وبالخوف. الليل رائع الهدوء يشمل كل شيء. قطع الطرق الملتوية الضيقة باتجاه السوق. النسائم تلامس أطرافه. تفوح رائحة عشقه الذي مارسه مع حبيبته. تدفقه فرحته ونشوته يغدّ السير وهي جائعة وأنا سعيدة.

اقترب من حركة السوق. شعر وكأن عيون الناس كلها تعرف مسرّ فرحه. تشمّ رائحته وكأنه جنين تفوح منه رائحة الرّحم الذي خرج منه للتوّ. كل العيون يحسّها تهته. تضاعف فرحه فيركض. يركض كطفل يريد اللّحاق بالأطفال الذين سبقوه. يشوت حجارة

الطريق، يلتقط عصا، يكسرها بقوة، يمسك بحصى، يداعبها، يشمّ فيها رائحة التراب. رائحة حصة الرطبة. يهدي السلام بعينه لكل المارين. يشعر وكأن جناحين نبتا له. لا الأرض تشع له ولا الفضاء. يطير فرحاً. مفرداً، والهأ. عصفوراً صغيراً يطير بعد أن ذرّته أمه على الطيران.

آه. أمي. كم مضى من أسابيع وشهور لم أطرق بابها. لقد كبتني مخاوفي وشكوكي. منذ متى لم ترّ وجهي؟ لم تسمع أخباري؟ منذ متى لم أضع رأسي على صدرها اللين الحنون لأسمع خفقانه تنادي باسمي... سالم... سالم... سالم...

أنا الآن يا أمي. ولدك الذي اختطفوه من حضنك صغيراً. أتذكرك الآن وقد صرت - رجلاً - هل أحرمك أن تفرحي بي مثل فرحي بنفسي؟.

غير اتجاهه.

ركض نحو بيتها. طرق الباب. عزف بالطرقات ألحان فرحه. وشوقه. فتحت. هبّت نسمة عبقّة. حين تأكد لها وجهه شهقت والبشر يطاير من وجهها:

- سالم؟ أنت في هذا الليل؟

ارتمى عليها. بطفولته التي عاودته. عانقها بحرارة. هفت روحه «ما أشهى رائحة الأم بعد فراق. وما أحلى عناقها بعد الصبر».

هفت:

- أنا يا أمي. أحمل لك بشارة.

انفردت دهشة حانية على وجهها وهي تنضح له الطريق:

- تعال... تعال... بشارة خير إن شاء الله.

- خير يُمه... كل الخير.

جلسا فوق حصيرة الحوش. انفردت شفتاهما بابتسامة عريضة

استحسنته:

- يا الله قول. فرّح قلب أمك بعد هالغية الطويلة.

أغمض عينه. استعاد لحظته مع حصّة تقاطر صوته:

- سامحيني. كنت يا يُمه غرقان. ضايح. اليوم بس لقيت

روحي.

هلع قلب الأم الصّابر. تراكضت الأسئلة المعجونة بالقلق.

والخوف. والتوقّع. إلحاح لا يلتقط أنفاسه. وقلب أم لا تكف دقّاته

عن التوتّر.

شعر أنه عكّر مياه فرحتها به. أشغل بالها. وذوّب قلبها. انكب

يرأسه فوق ركبته. كلّها ضغطتا على رأسه. تتفقد - هل طار عقل

الولد - سئّت عليه ولهفتها المترققة بالدمع:

- يا وليدي شغلت بالي. قل.

فنع دقاته المسكونة بالآلم. نيش تعب الشهور. أغرق أمه

بتفاصيل هو نفسه ما حسب أنه يحفظها، وأنها حفرت الجروح

عميقة في روحه، حتى كاد يشم سمومها تنسوح ونثر قبحها إلى

أنفاس أمه التي تشهق تارة وتأسو تارة أخرى ترتجف كلماتها

وحسراتها وهي تحضن جسده في حضنها وتعاتبه:

- كل هذا يا سالم. ولا تقول لأمك؟

- ما كنت أريد أن أثقل عليك بهومي؟

- من يشيل هكّك غير قلب أمك؟

- تعبت... وحصّة تعبت.

- زين ما جئتي.

- أبوي وعمتي قالوا هذا. حصّة قالت روح لطيب.

- رحت؟؟

- لا. قلت أتحمّل وتحملت. ألحين الحمد لله. جيت

أبشرك.

شدّت رأسه إلى صدرها. تنشّقت عطر شعره المتعرق. هو

يكزّر مثل طفل وصوتها:

- الحمد لله اللّهي بلّغني فيك.

ابتعد عن صدرها.. نظر إليها والحيرة تملأ عينيه:

- بس يا يُمه. شلون حملت حصّة؟

ضحكت.. بانّت أسنانه، ولتّها المصبوغة «بالديرم».

- حسبي الله عليك ولد... كل شيء يصير. قدرة الله.

- ليش قالت طلقني. أو افلّني وارتاح؟

- خافت. ما تدري شالسالفة. وايد بنات (يخملون قبل ما...)

دفعته وهي تداعبه:

- «يُشكّ عاد لا تصير غشيم.

قيلها. تشمّ حناء كنيها. أخبذ يشكرها. يطلب رضاها

ودعواتها. أراد أن يتمدّد على الحصير. نهته وهي تلتكزه:

- غليت حصّة بروحها.

هَبْ واقفأ... تذكّر ها، تذكّر الكياب الذي وعدنا به، تذكّر صوتها يرجوه ألا يتركها وحيدة، طمأن أمه وهو يُطمئن نفسه:

- لا تخافي.

- الشرّ يا سالم يسكن حتى شقوق بيتكم. روح بسرعة.

أبدى لها بعض الدلال:

- تطرديني؟

هانقته:

- بودي لو تبيت الليلة فوق صدري، وفي عيوني، لكن أنا خائفة.

شقّ سهم الخوف قلبه. طار نحو الباب وقد فاجأت الريح ركبته. وقدمه. سكته الرجفات وهو ينطفئ خارجاً ودعوات أمه تدفع وراءه تحرسه.

عاد يقطع الشوارع. يتبخّر فرحه وينمو الخوف. الطفولة التي عادت إليه خلعت نفسها، شعر بقدميه تتقلان. يحتمها على السير. يشعر بالظلام يتكاثر من حوله. ينظر إلى القمر. لم يكن هو نفسه الذي تركه في حوشهم. كان قمرهما يضحك ويتلألأ. يراه الآن شائياً. مهموماً. أحسّه يكي. هل ينزع حزنه من شيء؟ هل حصته في خطر؟

انطلق راكضاً. يُطأ تراب الطريق ويشتّ حصاه، وقلبه رغم الخوف لا ينسى ما وعدنا به. هي جائعة وقلبه يهتف:

«يا بائع الكباب والبصل، الليلة ليلة عرسى. العروس

جائعة. ممّدة تحت نور القمر؟ أسرع. الخوف يسكن قلبي. أخاف من شقوق الجدران أن تُخرج الشياطين. تحرق ألسنتها حبيتي. أخاف أن تسرقها الخفافيش. وتلدغها العقارب وهي بين الصّحوة والنوم.

أسرع... أسرع... يا بائع الكباب».

* * *

الأكياس في يده. خطواته تسبق صحوة غبش الفجر، الثقل في صدره يتزاحم هو والخوف عليه. أدرك أنه تأخر. ستكون حصّة قد ملئت، ونامت. لن يتركها. سيوقظها سيطعمها بيديه حتى تنجساً من الشبع.

أخرج المفتاح. أو شك أن يلمسه لكن الباب صرّ مندفعاً قبل أن يدفعه. دخل. لغمه صمت شرّير اندفع نحوها. جسدها ممّدد كما تركه لكنه مستور باللحاف حتى العنق. هل داعبت النسمة جسدها فأرخت عليه الستار؟ أم تراها سترته عن عيون القمر؟

وضع الأكياس بهدوء خشية أن يزعجها فجأة من أحلامها. جلس. تأمل وجهها، حالت تلك الزرقة التي افترشته. لامس جبينها، أرعشته البرودة. وعيناه المفتوحتان يباضهما الذي فيب السواد، وعطآن من ملح الدموع على الجانين.

هزّها برفقة... نادى باسمها. لم ترد فهزّها بعنف، صرخ باسمها يكاد أن يشقّ السكون. لم تتحرّك. سحب الغطاء. فاجأه الجبل. فلك الذي طوّح بمثلها إلى المرحاض لتخرج منه دابة. كان يلتفت

بخشونته حول عنقها الطري. معقود بقسوة. طرفاء ينسدلان على صدرها.

حصّة. عصفورته الحبيبة ذبيحة... مذبحاً صار يصرخ. يناديه. يحاول أن يفكّ العقدة المتمكّنة. صبّ عليها الماء. أرادها أن تشهق فلم تشهق. توّسل إليها نائحاً أن تقوم فغاب نواحه في العدم. فقدّ السيطرة على نفسه. عارك جسدها جذبه وألقاه. كزّر وهو يصرخ، ويعوي، يترنّج، ويشدّ الحبل... يشده... و...

يد قاسية تطبق على عنقه، تسحبه بعيداً ويده التي تصكّ على الحبل تشدّ حصّة إليه. صراخه وصوت عنته يطغى عليه:

- قتلها يا سالم...!!

التفت إليها. تقاجأ بوجهها ينفخ النار والحقد. أنياب حادة تبرز من ثغرها الذي يواصل الصراخ:

- قتلها... قتلها...

أبوه يقف وقد تعرّف وجهه بالزّعب، واللّوعة. اندفع إليه. يخطئ صدره، يعوي في وجهه، ثم وجه عنته، ويعود إلى حصّة بهزّها. يتوسّلها. وصوت عنته لا يرحمه ويوجّه التهمة: قتلها... قتل...

لا...

لا... لم أقتلها... عمتي قتلت داتة... هذا ليس حيلي... اعربي يا حصّة... أنا... لا.

عمتي... قتلت... داتة... حصّة... لم أقتلها... لا... لا... لا... لا...

ملاً صراخه الغرفة...

الطيب

المرضة

وانغرزت إبرة في ذراعه...

www.mlazna.com

RAYAHEEN